جامعة جنوب الوادي
كلية التربية
الفرقة الأولى عام لغة عربية

محاضـــرات
في
علـــــوم القـــــرآن

إعداد
د/محمد حسن على

للعام الجامعي
٢٠٢٣-٢٠٢٤م

بيانات الكتاب :

الكلية : التربية

الفرقة :الأولي

التخصص: عام لغة عربية

المقرر: علوم القرآن

عدد الصفحات :١٨٧

المؤلف :د.محمد حسن على

المحتوى:

==========

الموضوعات	الصفحة
المقدمة	٣-١٢
الباب الأول : حول القرآن الكريم ويشتمل :	١٣-١١٦
الفصل الأول : القرآن الكريم : تعريفه – أسماؤه وصفاته	١٣-٢٥
الفصل الثانى: الوحى : تعريفه – صوره – أثره	٢٦-٣٦
الفصل الثالث: حكمة نزول القرآن مفرقا	٣٧-٥٦
الفصل الرابع : جمع القرآن وترتيبه	٥٧-٧٧
الفصل الخامس : إعجاز القرآن	٧٨-١١٦
الباب الثانى : أهم علوم القرآن ويشتمل :	١١٧-١٨٧
الفصل الأول : المكى والمدنى	١١٧-١٣١
الفصل الثانى : أسباب النزول	١٣٢-١٤٣
الفصل الثالث : المحكم والمتشابه	١٤٤-١٤٩
الفصل الرابع :الناسخ والمنسوخ	١٥٠-١٦٩
الفصل الخامس : العام والخاص	١٧٠-١٨١
الفصل السادس : المطلق والمقيد	١٨٢-١٨٧

مُقَدِّمَة

إن الحمد لله نحمده ونستعين به ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادى له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله.

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٠٢﴾﴾.[1]

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً ۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ﴿١﴾﴾.[2]

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَقُولُواْ قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٧٠﴾ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَـٰلَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا ﴿٧١﴾﴾.[3]

وبعـــــــــــد

فهذا كتاب في علوم القرآن، حاولت فيه دراسة تاريخ القرآن الكريم، والتعريف بإعجازه، وأهم علوم القرآن، وذلك بإيجاز غير مُخل ولكنه يضع القارئ على بداية الطريق للدراسات حول القرآن الكريم.

ذلك الكتاب المعجز، الذى نزل به الروح الأمين على قلب سيدنا محمد (ﷺ) بلسان عربى مبين، وهو كتاب الله تعالى، فيه نبأ ما قبلكم، وخبر ما بعدكم، وحكم ما بينكم، هو الفصل ليس بالهزل، من تركه من جبار قصمه الله، ومن ابتغي الهدى في غيره أضله الله، وهو حبل الله المتين، وهو الذكر الحكيم، وهو الصراط المستقيم، وهو الذى لا تزيغ به

---

[1] سورة آل عمران: آية (١٠٢).

[2] سورة النساء: آية (١).

[3] سورة الأحزاب: آية (٧٠-٧١).

الأهواء، ولا تلتبس به الألسنة، ولا تشبع منه العلماء، ولا يخلق على كثرة الرد، ولا تنقضي عجائبه، وهو الذى لم تنته الجن إذ سمعته حتى قالوا: ﴿قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ ٱسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ فَقَالُوٓاْ إِنَّا سَمِعْنَا قُرْءَانًا عَجَبًا ۝١ يَهْدِيٓ إِلَى ٱلرُّشْدِ فَـَٔامَنَّا بِهِۦ وَلَن نُّشْرِكَ بِرَبِّنَآ أَحَدًا ۝٢﴾.[1] من قال به صدق، ومن عمل به أجر، ومن حكم به عدل، ومن دعي إليه هدى إلى صراط مستقيم.

وهذا الكتاب يشتمل "بعد المقدمة" على تمهيد وبابين:

التمهيد: ويتناول علوم: النشأة والتطور.

الباب الأول: حول القرآن الكريم

ويشتمل على خمسة فصول

الفصل الأول: القرآن الكريم: تعريفة – أسماؤه وصفاته.

الفصل الثاني: الوحى: تعريفة – صورة – أثره.

الفصل الثالث: حكمة نزول القرآن مفرقاً.

الفصل الرابع: جمع القرآن وترتيبه.

الفصل الخامس: إعجاز القرآن الكريم.

الباب الثاني: ويتناول أهم علوم القرآن الكريم.

ويشتمل على أحد عشر فصلاً

الفصل الأول: المكي والمدني.

الفصل الثاني: أسباب النزول.

---

[1] سورة الجن: آية (١-٢).

الفصل الثالث: المحكم والمتشابه.

الفصل الرابع: الناسخ والمنسوخ.

الفصل الخامس: العام والخاص.

الفصل السادس: المطلق والمقيد.

الفصل السابع: المنطوق والمفهوم.

الفصل الثامن: قصص القرآن.

الفصل التاسع: القسم في القرآن الكريم.

الفصل العاشر: المثل في القرآن الكريم.

الفصل الحادي عشر: آداب حملة القرآن.

وانى لأرجوا بهذا العمل البسيط المتواضع أن أكون قد سهلت على طلبتنا الأعزاء سبيل تفهم ما تمس إليه الحاجة من أبحاث هذا العلم.

وختاماً أسأل الله العظيم أن ينفعنا وإياكم بما حوى هذا الكتاب، وأن يجعل أعمالنا كلها خالصة لوجهه الكريم.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين

د. إبراهيم رشاد محمد

القاهرة – مصر الجديدة

جمادى الأولى ١٤٢١هـ

يوليو ٢٠٠٠م

التمهيـــــد

علوم القرآن: النشأة والتطور

القرآن الكريم هو معجزة الإسلام الخالدة التي لا يزيدها التقدم العلمي إلا رسوخاً في الأعجاز، أنزله الله على رسولنا محمد (ﷺ)، ليخرج الناس من الظلمات إلى النور، ويهديهم إلى الصراط المستقيم، فكان صلوات الله وسلامه عليه يبلغه لصحابته –وهم عرب خلص– فيفهمونه بسليقتهم، وإذا ألتبس عليهم فهم آيه من الآيات سألوا رسول الله (ﷺ) عنها.

روى الشيخان وغيرهما عن ابن مسعود قال: "لما نزلت هذه الآية: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمۡ يَلۡبِسُوٓاْ إِيمَٰنَهُم بِظُلۡمٍ﴾.[1] شق ذلك على الناس، فقالوا يا رسول الله: وأينا لا يظلم نفسه؟ قال: إنه ليس الذى تعنون، ألم تسمعوا ما قال العبد الصالح ﴿إِنَّ ٱلشِّرۡكَ لَظُلۡمٌ عَظِيمٞ﴾.[2]؟ إنما هو الشرك".

وكان رسول الله (ﷺ) يفسر لهم بعض الآيات: أخرج مسلم وغيره عن عقبه بن عامر قال: سمعت رسول الله (ﷺ) يقول وهو على المنبر: ﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسۡتَطَعۡتُم مِّن قُوَّةٖ﴾.[3] ألا إن القوة الرمي".

وحرص الصحابة على تلقي القرآن الكريم من رسول الله (ﷺ) وحفظه وفهمه، وكان ذلك شرفاً لهم. عن أنس (رضي الله عنه) قال: "كان الرجل منا إذا قرأ البقرة وآل عمران جدّ فينا" أي عظم.

---

[1] سورة الأنعام: آية (٨٢).

[2] سورة لقمان: آية (١٣).

[3] سورة الأنفال: آية (٦٠).

وحرصوا كذلك على العمل به والوقوف عند أحكامه. روى عن أبى عبد الرحمن السلمي أنه قال: "حدثنا الذين كانوا يُقرئوننا القرآن، كعثمان ابن عفان وعبد الله بن مسعود وغيرهما أنهم كانوا إذا تعلموا من النبي (ﷺ) عشر آيات لم يجاوزوها حتى يتعلموا ما فيها من العلم والعمل، قالوا: فتعلمنا القرآن والعلم والعمل جميعاً".

ولم يأذن لهم رسول الله (ﷺ) في كتابة شيء عنه سوى القرآن خشية أن يلتبس القرآن بغيره. روى مسلم عن أبى سعيد الخدري أن رسول الله (ﷺ) قال: "لا تكتبوا عني، ومن كتب عنى غير القرآن فاليمحيه، وحدثوا عنى ولا حرج، ومن كذب على متعمداً فليتبوأ مقعده من النار".

ولئن كان رسول الله (ﷺ) قد أذن لبعض صحابته بعد ذلك في كتابة الحديث، فإن ما يتصل بالقرآن ظل يعتمد على الرواية بالتلقين في عهد رسول الله (ﷺ) ثم جمع القرآن الكريم أول جمع في عهد الخليفة أبى بكر رضى الله تعالى عنه بعد معركة اليمامة.

ثم جاءت خلافة عثمان (رضي الله عنه)، واقتضت الدواعى –التي سنذكرها فيما بعد– إلى جمع المسلمين على مصحف واحد، فتم ذلك، وسمى بالمصحف الإمام، وأرسلت نسخ منه إلى الأمصار، وسميت كتابته بالرسم العثماني، نسبة إليه، ويعتبر هذا بداية "علم رسم القرآن".

ثم كانت خلافة على (رضي الله عنه)، فوضع أبو الأسود الدؤلى بأمر منه قواعد النحو، صيانة لسلامة النطق، وضبطاً للقرآن الكريم، ويعتبر هذا كذلك بداية "لعلم إعراب القرآن".

استمر الصحابة يتناقلون معاني القرآن وتفسير بعض آياته على تفاوت فيما بينهم، لتفاوت قدرتهم على الفهم، وتفاوت ملازمتهم لرسول الله (ﷺ)، وتناقل عنهم ذلك تلاميذهم من التابعين.

ومن أشهر المفسرين من الصحابة: الخلفاء الأربعة، وأبن مسعود، وأبن عباس، وأبى بن كعب، وزيد بن ثابت، وأبو موسى الأشعرى، وعبد الله ابن الزبير.

وقد كثرت الرواية في التفسير عن: عبد الله بن عباس، وعبد الله ابن مسعود، وأبى بن كعب. وما روى عنهم لا يتضمن تفسيراً كاملاً للقرآن، وإنما يقتصر على معاني بعض الآيات، بتفسير غامضها، وتوضيح مجملها.

أما التابعون: فأشتهر منهم جماعة. أخذوا عن الصحابة، وأجتهدوا في تفسير بعض الآيات.

فأشتهر من تلاميذ ابن عباس بمكة: سعيد بن جبير، ومجاهد، وعكرمة، مولى ابن عباس، وطاوس بن كيسان اليماني، وعطاء بن أبى رباح.

وأشتهر من تلاميذ أبى بن كعب بالمدينة: زيد بن أسلم، وأبو العالية، ومحمد بن كعب القرظي.

وأشتهر من تلاميذ عبد الله بن مسعود بالعراق: علقمة بن قيس، ومسروق، والأسود بن يزيد، وعامر الشعبي، والحسن البصرى، وقتادة بن دعامة السدوسي.

قال ابن تيمية: "وأما التفسير، فأعلم الناس به أهل مكة، لأنهم أصحاب ابن عباس، كمجاهد وعطاء ابن أبي رباح، وعكرمة مولى ابن عباس، وغيرهم من أصحاب ابن عباس، كطاوس، وأبي الشعثاء، وسعيد بن جبير وأمثالهم، وكذلك أهل الكوفة من أصحاب ابن مسعود، ومن ذلك ما تميزوا به على غيرهم، وعلماء أهل المدينة في التفسير، مثل: زيد بن أسلم الذي أخذ عنه مالك التفسير، وأخذه عنه أيضا ابنه عبد الرحمن، وعبد الله بن وهب".[1]

[1] مقدمة ابن تيمية في أصول التفسير، ص١٥.

والذى روى عن هؤلاء جميعاً بتناول علم التفسير، وعلم غريب القرآن، وعلم أسباب النزول، وعلم المكي والمدني، وعلم الناسخ والمنسوخ، ولكن هذا كله ظل معتمداً على الرواية بالتلقين.

جاء عصر التدوين في القرآن الثاني: وبدأ تدوين الحديث بأبوابه المتنوعة، وشمل ذلك ما يتعلق بالتفسير، وجمع بعض العلماء ما روى من تفسير للقرآن الكريم عن رسول الله (ﷺ)، أو عن الصحابة، أو عن التابعين.

وأشتهر منهم: يزيد بن هارون السلمي (ت١١٧هـ)، شعبة ابن الحجاج (ت١٦٠هـ)، ووكيع بن الجراح (ت١٩٧هـ)، وسفيان بن عيينه (ت١٩٨هـ)، وعبد الرازق بن همام (ت٢١١هـ).

وهؤلاء جميعاً كانوا من أئمة الحديث، فكان جمعهم للتفسير جمعاً لباب من أبوابه، ولم يصلنا من تفاسيرهم شيء مكتوب.

ثم نهج نهجهم بعد ذلك جماعة من العلماء وضعوا تفسيراً متكاملاً للقرآن وفق ترتيب آياته، وأشتهر منهم أبن جرير الطبري (ت٣١٠هـ).

وهكذا بدأ التفسير أولاً بالنقل عن طريق التلقي والرواية، ثم كان تدوينه على أنه باب من أبواب الحديث، ثم دون على استقلال وانفراد، وتتابع التفسير بالمأثور، ثم التفسير بالرأى.

وبإزاء علم التفسير كان التأليف الموضوعي في موضوعات تتصل بالقرآن ولا يستغنى المفسر عنه. فألهم على بن المدينى شيخ البخارى (ت٢٣٤هـ) في **أسباب النزول**. وألف أبو عبيد القاسم بن سلام (ت٢٢٤هـ) في **الناسخ والمنسوخ**، وفي **القراءات**. وألف بن قتيبيه (ت٢٧٦هـ) في **مشكل القرآن**. وهؤلاء من علماء القرن الثالث الهجرى.

وألف محمد بن خلف بن المرزبان المتوفى سنة (٣٠٩هـ) "**الحاوى في علوم القرآن**". وألف أبو بكر محمد بن القاسم الأنبارى (ت٣٢٨هـ) في **علوم القرآن**. وألف أبو بكر السجستاني (٣٣٠هـ) في **غريب القرآن**. وألف محمد بن على الأدفوى (ت٣٨٨هـ) "**الأستغناء في علوم القرآن**". هؤلاء من علماء القرن الرابع الهجرى.

ثم تتابع التأليف بعد ذلك. فألف أبو بكر الباقلاني (ت٤٠٣هـ) في **إعجاز القرآن** وعلى ابن إبراهيم بن سعيد الحوفى (ت٤٣٠هـ) في **إعراب القرآن** والماوردى (ت٤٥٠هـ) في **أمثال القرآن**. والعز بن عبد السلام (ت٦٦٠هـ) في **مجاز القرآن**. وعلم الدين السخاوى (ت٦٤٣هـ) في **علم القراءات**. وابن القيم (ت٧٥١هـ) في "**أقسام القرآن**". وهذه المؤلفات يتناول كل مؤلف منها نوعاً من علوم القرآن وبحثاً من مباحثه المتصلة به.

أما جميع هذه المباحث وتلك الأنواع –كلها أو جلها– في مؤلف واحد فقد ذكر الشيخ محمد عبد العظيم الزرقاني في كتابه "**مناهل العرفان في علوم القرآن**".[1] أنه ظفر في دار الكتب المصرية بكتاب مخطوط، لعلى بن ابراهيم بن سعيد، الشهير بالحوفي (ت٣٣٠هـ)، اسمه "**البرهان في علوم القرآن**" يقع في ثلاثين مجلداً يوجد منها خمسة عشر مجلداً غير مرتبه ولا متعاقبه، حيث يتناول المؤلف الأية من آيات القرآن الكريم بترتيب المصحف فيتكلم عما تشتمل عليه من علوم القرآن، مفرداً لكل نوع بعنوان، فيجعل العنوان العام في الآية (القول في قوله (ﷻ) ويذكر الآية، ثم يضع تحت هذا العنوان القول في الأعراب) ويتحدث عن الآية من الناحية النحوية واللغوية، ثم (القول في المعنى والتفسير) ويشرح الآية بالمأثور والمعقول، ثم (القول في الوقف والتمام) ويبين ما يجوز من الوقف، وما لا يجوز، وقد يفرد

[1] أنظر صفحة ٢٧ وما بعدها ج١، ط الحلبي.

القراءات بعنوان مستقل فيقول: (القول في القراءات) وقد يتكلم عن الأحكام التي تؤخذ من الآية عند عرضها.

والحوفى بهذا النهج يعتبر أول من دون علوم القرآن، وإن كان تدورينه على النمط الخاص الآنف الذكر، وهو (ت٣٣٠هـ). ثم تبعه ابن الجوزى (ت٥٩٧هـ) في كتابه "**فنون الأفنان في عجائب علوم القرآن**". ثم جاء بدر الدين الزركشى (ت٧٩٤هـ) وألف كتاباً وافياً سماه "**البرهان في علوم القرآن**".[١] ثم أضاف إليه بعض الزيادات جلال الدين البلقيني (ت٨٢٤هـ) في كتابه "**مواقع العلوم من مواقع النجوم**". ثم ألف جلال الدين السيوطي (ت٩١١هـ) كتابة المشهور "**الأتقان في علوم القرآن**".

ولم يكن نصيب علوم القرآن من التأليف في عصر النهضة الحديثة أقل من العلوم الأخرى، فقد أتجه المتصلون بحركة الفكر الإسلامي أتجاهاً سديداً في معالجة الموضوعات القرآنية بإسلوب العصر، مثل كتاب "**إعجاز القرآن**"، لمصطفى صادق الرافعي، وكتابي: "**التصوير الفني في القرآن**" و"**مشاهد القيامة في القرآن**" "للشهيد سيد قطب"، و "**ترجمة القرآن**" للشيخ محمد مصطفى المراغي، و "**مسألة ترجمة القرآن**" لمصطفى صبري، و "**النبأ العظيم**" للدكتور محمد عبد الله دراز، ومقدمة تفسير "**محاسن التأويل**" لمحمد جمال الدين القاسمي، وألف الشيخ طاهر الجزائري كتاباً سماه "**التبيان في علوم القرآن**"، وألف الشيخ محمد على سلامة كتابه "**منهج الفرقان في علوم القرآن**"، وتلاه الشيخ محمد عبد العظيم الزرقاني فألف كتابه "**مناهل العرفان في علوم القرآن**" وغيرها كثيراً.

هذه المباحث جميعها هي التي تعرف بعلوم القرآن، حتى صارت علماً على العلم المعروف بهذا الاسم.

---

[١] نشره وحققه الأستاذ محمد أبو الفضل إبراهيم في أربعة أجزاء.

والمراد بعلوم القرآن: العلم الذي يتناول الأبحاث المتعلقة بالقرآن من حيث معرفة أسباب النزول، وجمع القرآن وترتيبه، ومعرفة المكي والمدني، والناسخ والمنسوخ، والمحكم والمتشابه، إلى غير ذلك مما له صلة بالقرآن.

وقد يسمى هذا العلم بأصول التفسير، لأنه يتناول المباحث التي لا بد للمفسر من معرفتها للاستناد إليها في تفسير القرآن.

الباب الأول

حول القرآن الكريم

الفصل الأول: القرآن الكريم: تعريفه – أسماؤه وصفاته

الفصل الثاني: الوحي: تعريفه – صوره – أثره؟

الفصل الثالث: حكمة نزول القرآن الكريم مفرقاً.

الفصل الرابع: جمع القرآن وترتيبه.

الفصل الخامس: إعجاز القرآن الكريم.

الفصل الأول: القرآن الكريم: تعريفه – أسماؤه وصفاته

المبحث الأول: تعريف القرآن لغة واصطلاحا

تعريف القرآن:

القرآن لغة: مصدر (قرأ) يقال: قرأ قراءة وقرآناً قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ ﴿١٧﴾ فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ ﴿١٨﴾﴾.[1] أي قراءته.[2] فهو مصدر على وزن (فعلان) بضم الفاء كالغفران، ثم نقل من هذا المعنى المصدري وجعل اسماً للكلام المنزل على سيدنا محمد (ﷺ).

وقيل هو: وصف على وزن (فُعلان) بضم الفاء أيضاً، مشتق من (القرآن) بمعني الجمع، يقال: (قرأت الماء في الحوض) أي جمعته، ثم سمى به الكلام المنزل على سيدنا محمد (ﷺ) لجمع السور والآيات فيه، أو لجمعه ثمرات الكتب السماوية السابقة كلها.

وهذان الرأيان جريا على أن لفظة مهموز. أما من ذهب إلى أنه غير مهموز فاختلفوا في أصل اشتقاقه: فقيل إنه مشتق من: قرنت الشيء بالشيء، إذا ضممت أحدهما إلى الآخر، وسمى به القرآن لقراء السور والآيات والحروف بعضها ببعض. وقال الفراء: هو مشتق من القرائن، لأن الآيات منه يصدق بعضها بعضاً، وهى قرائن، أي أشباه ونظائر.

كما يرى البعض أنه أسم غير منقول، وضع من أول الأمر علماً على الكلام المنزل على سيدنا محمد (ﷺ).

كذلك اختلف العلماء في كونه مهموزاً، أو غير مهموز، وفى رأيي أن كليهما صحيح، لأن القراءات الصحيحة وردت بالاثنين، فلعل كل من ذهب إلى رأي أخذ بالقراءة التي تؤيد مذهبه.

---

[1] سورة القيامة: آية (١٧–١٨).

[2] إرشاد الفحول للشوكاني، ص٢٩، طبعة القاهرة، المعجم الوسيط مادة (قرأ).

القرآن في الاصطلاح:

فإذا تركنا علماء اللغة وجئنا إلى علماء الأصول، والفقهاء نجدهم يعرفون القرآن بأنه: "**كلام الله تعالى، المعجز، المنزَّل على خاتم الأنبياء والمرسلين، سيدنا محمد (ﷺ)، بواسطة الأمين جبريل (عليه السلام)، المكتوب في المصاحف، المنقول إلينا بالتواتر، المتعبد بتلاوته، المبدوء بسورة الفاتحة، المختوم بسورة الناس**".[1]

فخرج بوصف: المنزل على سيدنا محمد (ﷺ) سائر الكتب المنزله على غيره من الأنبياء والمرسلين، كما خرج بوصف: (المعجز، والمتعبد بتلاوته) الأحاديث القدسية على الرأي بأن لفظها من عند الله تعالى، فإنها ليست معجزه، ولا متعبداً بتلاوتها. وخرج بوصف: (المنقول، المتواتر) جميع ما سوى القرآن، من منسوخ التلاوة، والقراءات غير المتواترة.

والراجح أن لفظ (القرآن) علم شخصي، مشترك لفظي بين الكل وأجزاءه، فيقال لمن قرأ اللفظ المنزل كله: قرأ قرآناً، ويقال لمن قرأ بعضه: قرأ قرآناً، وهذا ما يفهم من كلام الفقهاء، حينما قالوا: (يحرم على الجنب قراءة القرآن) فإنهم يقصدون قراءة كله أو بعضه على السواء.[2]

---

[1] إرشاد الفحول، ص٢٩، أصول الفقه الإسلامي – زكى الدين شعبان، ص٣٠.

[2] المدخل لدراسة القرآن الكريم – محمد أبو شهبه – ص١٧، ط، القاهرة، المدخل لدراسة القرآن والسنه والعلوم الإسلامية – شعبان محمد إسماعيل – ج١، ص٨٩-٩٢، ط دار الأنصار بالقاهرة.

المبحث الثاني: أسماء القرآن الكريم وصفاته

أسماء القرآن:

من خصائص القرآن الكريم أن له عدة أسماء، وهذا يدل على شرفه وعلو منزلته، فكثرة الأسماء تدل على شرف المسمى وعلو قدره، وهذه هي أشهر أسمائه:

١. **القرآن:** قال الله تعالى: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْهُدَىٰ وَٱلْفُرْقَانِ﴾.[١]

٢. **الفرقان:** قال الله تعالى: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ﴾.[٢]

٣. **الكتاب:** قال الله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ فِيهِ﴾.[٣]

٤. **الذكر:** قال الله تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ۝٩﴾.[٤]

٥. **الوحي:** قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أُنذِرُكُم بِٱلْوَحْىِ﴾.[٥]

٦. **التنزيل:** قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ﴾.[٦]

٧. **القصص:** قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْقَصَصُ ٱلْحَقُّ﴾.[٧]

---

[١] سورة القرة: آية (١٨٥).

[٢] سورة الفرقان: آية (١).

[٣] سورة البقرة: آية (٢).

[٤] سورة الحجر: آية (٩).

[٥] سورة الأنبياء: آية (٤٥).

[٦] سورة الزمر: آية (٢٣).

[٧] سورة آل عمران: آية (٦٢).

٨. **الروح:** قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا﴾.[١]

٩. **المثاني:** قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا مَّثَانِىَ﴾.[٢]

وقد بلغت أسماء القرآن عند كثير من العلماء أكثر من تسعين أسماً لكن الغالب إطلاق أسماء القرآن والكتاب في تسمية هذا الكتاب الكريم.[٣]

قال الدكتور محمد عبد الله دراز: (روعي في تسمية قرآنا كونه متلواً بالألسن، كما روعي في تسمية كتاباً كونه مدوناً بالأقلام، فكلتا التسميتين من تسمية شيء بالمعني الواقع عليه: وفى تسميته بهذين الاسمين إشارة إلى أن حقة العناية بحفظه في موضعين لا في موضع واحد. أعنى أنه يجب حفظه في الصدور والسطور جميعاً: "أن تضل إحداهما فتذكر إحداهما الأخرى".

فلا ثقة لنا بحفظ حافظ حتى يوافق الرسم المجمع عليه من المنقول إلينا جيلاً بعد جيل، على هيئته التي وضع عليها أول مرة، ولا ثقة لنا بكتابة كاتب حتى يوافق ما هو عند الحافظ بالإسناد الصحيح المتواتر.

وبهذه العناية المزدوجة التي بعثها الله في نفوس الأمة المحمدية اقتداء بنبيها بقى القرآن محفوظاً في حرز حريز، إنجازاً لوعد الله، إذ تكفل بحفظه حيث يقول: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ۝٩﴾. ولم يصبه ما أصاب الكتب الماضية من التحريف والتبديل وانقطاع السند.

---

[١] سورة الشورى: آية (٥٢).

[٢] سورة الزمر: آية (٢٣).

[٣] أنظر: البرهان – للزركشى (٢٧٣/١) – لطائف الإشارات – للقسطلاني (١٨/١).

ثم بيَّن سر هذه التفرقة بأن سائر الكتب السماوية جيء بها على التوقيت لا التأبيد، وأن هذا القرآن جيء به مصدقًا لما بين يديه من الكتب ومهيمنًا عليها، فكان جامعًا لما فيها من الحقائق الثابتة، زائدًا عليها بما شاء الله زيادته، وكان سائراً مسيرها، ولم يكن شيء منها ليسد مسده، فقضى الله أن يبقى حجة إلى قيام الساعة، وإذا قضى الله أمرًا يسر له أسبابه، وهو الحكيم العليم).[1]

أوصاف القرآن الكريم:

وقد وصف الله (ﷻ) القرآن بأوصاف كثيرة منها:

١. **(النور)** **قَالَ تَعَالَىٰ:** ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُم بُرْهَـٰنٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ نُورًا مُّبِينًا ﴿١٧٤﴾﴾.[2]

٢. **(هدى – شفاء – رحمة – موعظة)** ودليل ذلك قوله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَآءٌ لِّمَا فِى ٱلصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٥٧﴾﴾.[3]

٣. **(مبارك)** **قَالَ تَعَالَىٰ:** ﴿وَهَـٰذَا كِتَـٰبٌ أَنزَلْنَـٰهُ مُبَارَكٌ مُّصَدِّقُ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ﴾.[4]

٤. **(مبين)** **قَالَ تَعَالَىٰ:** ﴿قَدْ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٌ وَكِتَـٰبٌ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾﴾.[5]

---

[1] النبأ العظيم – ص(١٢-١٣) – ط دار القلم بالكويت.

[2] سورة النساء: آية (١٧٤).

[3] سورة يونس: آية (٥٧).

[4] سورة الأنعام: آية (٩٢).

[5] سورة المائدة: آية (١٥).

٥. **(بشري)** قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿قُلْ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ فَإِنَّهُۥ نَزَّلَهُۥ عَلَىٰ قَلْبِكَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٩٧﴾﴾.[١]

٦. **(عزيز)** قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِٱلذِّكْرِ لَمَّا جَآءَهُمْ ۖ وَإِنَّهُۥ لَكِتَٰبٌ عَزِيزٌ ﴿٤١﴾﴾.[٢]

٧. **(بشير - نذير)** قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿كِتَٰبٌ فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٣﴾ بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾.[٣]

٨. **(مجيد)** قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿بَلْ هُوَ قُرْءَانٌ مَّجِيدٌ ﴿٢١﴾﴾.[٤]

وأوصاف القرآن الكريم لا يمكن حصرها في هذا المقام الضيق، فهى كثيرة، وأجل من أن تحصى، وكل وصف من هذه الأوصاف يدل على معني من المعاني التي تضمنها القرآن الكريم.[٥]

---

[١] سورة البقرة: آية (٩٧).

[٢] سورة فصلت: آية (٤١).

[٣] سورة فصلت: آية (٣-٤).

[٤] سورة البروج: آية (٢١).

[٥] راجع: المدخل لدراسة القرآن والسنة والعلوم الإسلامية – شعبان محمد إسماعيل، ج١، ص٩٤.

المبحث الثالث: الفرق بين القرآن والحديث القدسي والحديث النبوي

سبق تعريف القرآن، ولكي نعرف الفرق بينه وبين الحديث القدسي والنبوي نعطي التعريفين الآتيين:

الحديث النبوي:

في اللغة، الحديث: ضد القديم، ويطلق ويراد به كل كلام يتحدث به وينقل ويبلغ الإنسان من جهة السمع أو اللوحي في يقظته أو منامه، وبهذا المعني سمي القرآن حديثاً ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ حَدِيثًا ﴿٨٧﴾﴾.[1] وسمى ما يحدث به الإنسان في نومه ﴿وَعَلَّمْتَنِي مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ﴾.[2]

وفي الاصطلاح، الحديث: ما أضيف إلى النبي (ﷺ) من قول أو فعل أو تقرير أو صفه. **فالقول:** كقوله (ﷺ): "**إنما الأعمال بالنيات، وإنما لكل امرئ ما نوى ...**"[3] **والفعل:** كالذي ثبت من تعليمه لأصحابه كيفية الصلاة ثم قال: "**صلوا كما رأيتموني أصلي**"[4]. وما ثبت من كيفية حجة، وقد قال: "**خذوا عنى مناسككم**"[5]. **والإقرار:** كأن يقر أمرا علمه من أحد الصحابة من قول أو فعل، سواء أكان ذلك في حضرته (ﷺ)، أم في غبته ثم بلغه، ومن أمثلته ما روى من أن رسول الله (ﷺ) بعث رجلاً على سرية، وكان يقرأ لأصحابه في صلاته فيختم بـ**(قل هو الله أحد)** فلما رجعوا ذكروا ذلك له عليه الصلاة والسلام، فقال:

---

[1] سورة النساء: آية (٨٧).

[2] سورة يوسف: آية (١٠١).

[3] من حديث طويل رواه البخاري ومسلم عن عمر بن الخطاب.

[4] رواه البخاري.

[5] أخرجه مسلم وأحمد والنسائي.

سلوه لأي شيء يصنع ذلك؟ فسألوه، فقال: لأنها صفة الرحمن، وأنا أحب أن أقرأ بها فقال النبي (ﷺ) أخبروه أن الله يحيه".[1]

والصفة: كما روى: "من أنه (ﷺ)، كان دائم البشر، سهل الخلق، لين الجانب، ليس بفظ ول غليظ ولا صخاب ولا فاحش ولا عيّاب.....".

الحديث القدسي:

عرفنا معني الحديث لغة، **والقدسي:** نسبة إلى القدس، وهى نسبة تدل على التعظيم، لأن مادة الكلمة دالة على التنزيه والتطهير في اللغة، قالتقديس: تنزيه الله تعالى، والتقديس: التطهير، وتقدس: تطهر، قال الله تعالى على لسان ملائكته ﴿وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ﴾.[2] أي نطهر أنفسنا لك.

وفى الإصطلاح، الحديث القدسى: هو ما يضفيه النبي (ﷺ) إلى الله تعالى: أي أن النبي (ﷺ) يرويه على أنه من كلام الله، فالرسول روٍ لكلام الله بلفظ من عنده وإذا رواه أحد رواه عن رسول الله مسنداً إلى الله (ﷻ)، فيقول: قال الله تعالى: أو يقول الله تعالى:

ومثال الأول: عن أبى هريرة (رضي الله عنه)، عن رسول الله (ﷺ) فيما يرويه عن ربه (ﷻ): "**يد الله ملأى لا يغيضها نفقة، سحاء الليل والنهار ..**".[3]

---

[1] رواه البخاري ومسلم.

[2] سورة البقرة: آية (٣٠).

[3] أخرجه البخاري.

ومثال الثاني: عن أبى هريرة (ﷺ)، أن رسول الله (ﷺ) قال: يقول الله تعالى: "**أنا عند ظن عبدى بي، وأنا معه إذا ذكرني، فإن ذكرني في نفسه، ذكرته في نفسي، وإن ذكرني في ملأ، ذكرته في ملأ خير منه**".[1]

الفرق بين القرآن والحديث القدسي:

هناك عدة فروق بين القرآن الكريم والحديث القدسي أهمها:

١. أن القرآن الكريم كلام الله، أوحي به إلى رسول الله بلفظه، وتحدى به العرب، فعجزوا عن أن يأتوا بمثله، أو بعشر سور مثله، أو بسورة من مثله، ولا يزال التحدي به قائماً، فهو معجزة خالدة إلى يوم الدين.

٢. والقرآن الكريم لا ينسب إلا إلى الله تعالى، فيقال: قال الله تعالى. والحديث القدسي – كما سبق– قد يروى مضافاً إلى الله وتكون النسبة إليه حينئذ نسبة إنشاء فيقال: قال الله تعالى، أو يقول الله تعالى، وقد يروى مضافاً إلى رسول الله (ﷺ)، وتكون النسبة حينئذ نسبة إخبار، لأنه عليه الصلاة والسلام هو المخبر به عن الله، فيقال: قال رسول الله (ﷺ) فيما يرويه عن ربه (ﷻ).

٣. والقرآن الكريم جميعه منقول بالتواتر، فهو قطعي الثبوت، والأحاديث القدسية أكثرها أخبار آحاد، فهي ظنية الثبوت، وقد يكون الحديث القدسي صحيحاً وقد يكون حسناً، وقد يكون ضعيفاً.

[1] أخرجه البخاري ومسلم.

٤. والقرآن الكريم من عند الله لفظاً ومعني، فهو وحى باللفظ والمعنى والحديث القدسي معناه عند الله ولفظه من عند الرسول (ﷺ) على الصحيح فهو وحى بالمعني دون اللفظ، ولذا تجوز روايته بالمعني عند جمهور المحدثين.

٥. والقرآن الكريم متعبد بتلاوته، فهو الذى تتعين القراءة به في الصلاة ﴿فَٱقْرَءُواْ مَا تَيَسَّرَ مِنَ ٱلْقُرْءَانِۚ﴾.[١] وقراءته عبادة يثيب الله عليها بما جاء في الحديث "**من قرأ حرفاً من كتاب الله تعالى فله حسنه، والحسنة بعشر أمثالها، لا أقول ألم حرف، ولكن ألف حرف، ولام حرف، وميم حرف**".[٢]

والحديث القدسي لا يجزئ عن الصلاة، ويثيب الله على قراءته ثواباً عاماً، فلا يصدق فيه الثواب الذى ورد ذكره في الحديث على قراءة القرآن، بكل حرف عشر حسنات.

الفرق بين الحديث القدسي والحديث النبوي:

الحديث النبوي قسمان:

"**قسم توقيفي**": وهو الذى تلقى الرسول (ﷺ) مضمونه من الوحى فبينه للناس بكلامه، وهذا القسم وإن كان مضمونه منسوباً إلى الله فإنه –من حيث هو كلام– حريّ بأن ينسب إلى الرسول (ﷺ) لأن الكلام إنما ينسب إلى قائله وإن كان ما فيه من المعني قد تلقاه عن غيره.

---

[١] سورة المزمل: آية (٢٠).

[٢] رواه الترمذي عن ابن مسعود وقال حديث حسن صحيح.

و"**قسم توفيقي**": وهو الذى استنبطه الرسول (ﷺ) من فهمه للقرآن، لأنه مبيّن له، أو استنبطه بالتأمل والاجتهاد. وهذا القسم الاستنباطي الاجتهادي يقره الوحى إذا كان صوباً، وإذا وقع فيه خطأ جزئي نزل الوحى بما فيه الصواب[1] وليس هذا القسم كلام الله قطعاً.

ويتبين من ذلك: أن الأحاديث النبوية بقسميها: التوقيفي، والتوفيقي الاجتهادي الذى أقره الوحى، يمكن أن يقال فيها إن مردها جميعاً بجملتها إلى الوحى، وهذا معنى قوله تعالى في رسولنا (ﷺ) ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ۝٣ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ ۝٤﴾.[2]

والحديث القدسي: معناه من عند الله (ﷻ)، يلقى إلى الرسول (ﷺ) بكيفيه من كيفيات الوحى –لا على التعيين. أما ألفاظه فمن عند الرسول (ﷺ) على الراجح، ونسبته إلى الله تعالى نسبة لمضمونه لا نسبة لألفاظه، ولو كان لفظه من عند الله لما كان هناك فرق بينه وبين القرآن، ولوقع التحدي بأسلوبه والتعبد بتلاوته.

ويرد على هذا شبهتان!

الشبهة الأولى: أن الحديث النبوى وحى بالمعني كذلك، واللفظ من الرسول (ﷺ) فلماذا لا نسميه قدسياً أيضاً؟

والجواب: أننا نقطع في الحديث القدسي بنزول معناه من عند الله لورود النص الشرعي على نسبته إلى الله بقوله (ﷺ): "قال الله تعالى، أو يقول الله تعالى"، ولذا سميناه قدسياً، بخلاف الأحاديث النبوية فإنها لم يرد فيها مثل هذا النص، ويجوز في كل واحد منها أن يكون مضمونه مُعْلماً بالوحى (أي توقيفياً)، وأن يكون مستنبطاً بالاجتهاد (أي توفيقياً)، ولذا

---

[1] ومثاله ما كان في أسري بدر، فإن رسول الله (ﷺ) أخذ برأي أبي بكر وقبل منهم الفداء، فنزل القرآن الكريم معاتباً له (ما كان لنبي أن يكون له أسرى .....) الأنفال: (٦٧).

[2] سورة النجم: آية (٣–٤).

سمينا الكل نبوياً بالتسمية عند الحد المقطوع به، ولو كان لدينا ما يميز الوحى التوقيفى لسميناه قدسياً كذلك.

الشبهة الثانية: أنه إذا كان لفظ الحديث القدسى من الرسول (ﷺ)، فما وجه نسبته إلى الله بقوله (ﷺ): قال الله تعالى: أو يقول الله تعالى.

والجواب: أن هذا سائغ في العربية، حيث ينسب الكلام باعتبار مضمونه، لا باعتبار ألفاظه، فأنت تقول حينما تنثر بيتاً من الشعر: يقول الشاعر كذا، وحينما تحكى ما سمعته من شخص: يقول فلان كذا، وقد حكى القرآن الكريم عن موسي وفرعون وغيرهما مضمون كلامهما بألفاظ غير ألفاظهم، وأسلوب غير أسلوبهم، ونسب ذلك إليهم: ﴿وَإِذْ نَادَىٰ رَبُّكَ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱئْتِ ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ۝١٠ قَوْمَ فِرْعَوْنَ ۚ أَلَا يَتَّقُونَ ۝١١ قَالَ رَبِّ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ ۝١٢ وَيَضِيقُ صَدْرِى وَلَا يَنطَلِقُ لِسَانِى فَأَرْسِلْ إِلَىٰ هَٰرُونَ ۝١٣ وَلَهُمْ عَلَىَّ ذَنۢبٌ فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ ۝١٤ قَالَ كَلَّا ۖ فَٱذْهَبَا بِـَٔايَٰتِنَآ ۖ إِنَّا مَعَكُم مُّسْتَمِعُونَ ۝١٥ فَأْتِيَا فِرْعَوْنَ فَقُولَآ إِنَّا رَسُولُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝١٦ أَنْ أَرْسِلْ مَعَنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ۝١٧ قَالَ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ ۝١٨ وَفَعَلْتَ فَعْلَتَكَ ٱلَّتِى فَعَلْتَ وَأَنتَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ۝١٩ قَالَ فَعَلْتُهَآ إِذًا وَأَنَا۠ مِنَ ٱلضَّآلِّينَ ۝٢٠ فَفَرَرْتُ مِنكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ فَوَهَبَ لِى رَبِّى حُكْمًا وَجَعَلَنِى مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ۝٢١ وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَىَّ أَنْ عَبَّدتَّ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ۝٢٢ قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٢٣ قَالَ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَآ ۖ إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ ۝٢٤﴾[1].[2]

---

[1] سورة الشعراء: آية (١٠: ٢٤).

[2] من ذهب إلى أ، الحديث القدسي وحي بألفاظ كذلك يجعل هذا فرقاً أساسياً بينه وبين الحديث النبوي، ويبقي الفرق بينه وبين القرآن الكريم في عدم التحدي، وعدم الإعجاز، وعدم التعبد بتلاوته، وعدم التواتر في معظمه.

الفصل الثاني: الوحي: تعريفه – صوره – أثره

المبحث الأول: الوحي في اللغة والشرع

الوحي في اللغة: قال ابن فارس في "مقاييس اللغة": الواو والحاء والحرف المعتل أصل يدل على إلقاء علم في إخفاء إلى غيرك، فالوحي الإشارة، والوحي الكتاب والرسالة، وكل ما ألقيته إلى غيرك حتى علمه فهو وحي كيف كان. وكل ما في باب الوحي فراجع إلى هذا الأصل الذي ذكرناه.

قال الراغب الأصفهاني: أصل الوحي الإشارة السريعة، ولتضمن السرعة قيل: أمر وحي، وشيء وحي، أي عجل مسرع، وذلك يكون بالكلام على سبيل الرمز والتعريض، وقد يكون بصوت مجرد عن التركيب، وبإشارة ببعض الجوارح، وبالكتابة. قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ مِنَ ٱلْمِحْرَابِ فَأَوْحَىٰٓ إِلَيْهِمْ أَن سَبِّحُوا۟ بُكْرَةً وَعَشِيًّا ﴿١١﴾﴾.[1] أي أشار إليهم ولم يتكلم.

إذن فمعني الوحي من الناحية اللغوية: الإعلام الخفي السريع الخاص بمن يوجه إليه، بحيث يخفى على غيره، ويدخل تحت ذلك أنواع عديدة من الإعلام:

- **منها: الإلهام الغريزي،** كالوحي إلى النحل: قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحْلِ أَنِ ٱتَّخِذِى مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ ٱلشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ ﴿٦٨﴾ ثُمَّ كُلِى مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ فَٱسْلُكِى سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا ۚ يَخْرُجُ مِنۢ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ فِيهِ شِفَآءٌ لِّلنَّاسِ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٦٩﴾﴾.[2]

---

[1] سورة مريم: آية (١١).

[2] سورة النحل: آية (٦٨-٦٩).

- **ومنها: إلهام الخواطر بما يلقيه الله في روع الإنسان السليم الفطرة الطاهر الروح،** كالوحي إلى أم موسي **قَالَ تَعَالَىٰ:** ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنْ أَرْضِعِيهِ ۖ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِى ٱلْيَمِّ وَلَا تَخَافِى وَلَا تَحْزَنِىٓ ۖ إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ۝٧﴾.[1]
- **ومنها: وسوسة الشيطان** ﴿وَإِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰٓ أَوْلِيَآئِهِمْ لِيُجَٰدِلُوكُمْ ۖ﴾.[2]، ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِىٍّ عَدُوًّا شَيَٰطِينَ ٱلْإِنسِ وَٱلْجِنِّ يُوحِى بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ ٱلْقَوْلِ غُرُورًا ۚ﴾.[3]

ووحي الله تبارك وتعالى إلى أنبيائه قد روعي فيه المعنيان الأصليان لهذه المادة: وهما: الخفاء والسرعة.[4]

وأوحى، ووحي لغتان، والأولى أفصح وبها ورد القرآن، وقد يطلق الوحي ويراد به اسم المفعول أي (الموحي).[5]

الوحي في الشرع:

ومعني الوحي في الشرع: "**تكليم الله سبحانه واحداً من عباده بطريقة من طرق الوحي**"، والوحي أمر غيبي لا نستطيع أن نفصل القول فيه إلا بحدود ما ورد في شأنه من النصوص الشرعية.

إن كل من آمن بوجود الله وقدرته، لزمه أن يسلم بموضوع الوحي على أنه بديهية مسلمة، لا يحتاج إلى مزيد من الأدلة عليه، فلا يمكن لنا إذا آمنا بوجود الخالق المدبر إلا

---

[1] سورة القصص: آية (٧).

[2] سورة الأنعام: آية (١٢١).

[3] سورة الأنعام: آية (١١٢).

[4] الوحي المحمدي: للسيد رشيد رضا، ص٣٧.

[5] عمدة القارئ: للعيني، ١٤/١.

أن نتبع هذا الإيمان بالإيمان بضرورة رعايته لخلقه، وتدبيره المستمر للكون على ما يرضى، ولا يمكن أن تأتي ذلك إلا بالوحي.

أما إمكانية الوحي فإن العقل السليم لا يستبعدها، لأن الذي يؤمن بوجود الله –سبحانه وكماله– لا يصعب عليه الاقتناع عقلياً بإمكانية الوحي من الناحية الواقعية، ذلك أننا نجد في دنيا الواقع أن الإنسان العاجز المحدود الطاقة استطاع أن يصل بواسطة بعض التصرفات والبحوث والآلات إلى أن يؤثر في إنسان مثله .. فما القول في قدرة الله تبارك وتعالى على ذلك وأكبر من ذلك؟

المبحث الثاني: صور الوحي

هناك صور للوحي حددتها الآيات الكريمة والأحاديث الصحيحة، نورد بعضها فيما يأتي:

قال الله تعالى: ﴿۞وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَآيِٕ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِۦ مَا يَشَآءُۚ إِنَّهُۥ عَلِيٌّ حَكِيمٌ ۝٥١﴾.[1]

وجاء في الصحيحين عن أول بدء الوحي الحديث الآتي: عن عائشة قالت: "أول ما بدئ به رسول الله (ﷺ) من الوحي الرؤيا الصالحة في النوم، فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح، ثم حبب إليه الخلاء، وكان يخلو بغار حراء، فيتحنث فيه –وهو التعبد– الليالي ذوات العدد قبل أن ينزع إلى أهله، ويتزود لذلك، ثم يرجع إلى خديجة فيتزود لمثلها، حتى جاءه الحق وهو في غار حراء؛ فجاءه الملك فقال اقرأ، قال: "ما أنا بقارئ"، قال: "فأخذني فغطني حتى بلغ مني الجهد، ثم أرسلني فقال: اقرأ. قلت: ما أنا بقارئ، فأخذني فغطني الثانية حتى بلغ مني الجهد، ثم أرسلني فقال: اقرأ، فقلت: ما أنا بقارئ، فأخذني فغطني الثالثة، ثم أرسلني فقال: ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ۝١ خَلَقَ ٱلْإِنسَـٰنَ مِنْ عَلَقٍ ۝٢ ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ۝٣﴾.

فرجع بها رسول الله (ﷺ) يرجف فؤاده، فدخل على خديجة فقال: "زملوني زملوني" .. الحديث[2]. وسنعدد هذه الصور التي يكون الوحي عليها:

---

[1] سورة الشوري: آية (٥١).

[2] انظر الحديث في "اللؤلؤ والمرجان" ٣٢/١، والبخاري ٣/١، ومسلم ٩٧/١، وانظر شرحه في "فتح الباري" ٢٢/١، وانظر "الإتقان" ٢٣/١ النوع السابع.

١. يكون الوحي بالرؤيا الصادقة:

وذلك كما في حديث عائشة الذى أوردناه قبل قليل: (أول ما بدئ به رسول من الوحي الرؤيا الصادقة في النوم)، وكما في قوله تعالى عن إبراهيم (عليه السلام)﴿يَٰبُنَيَّ إِنِّيٓ أَرَىٰ فِي ٱلْمَنَامِ أَنِّيٓ أَذْبَحُكَ فَٱنظُرْ مَاذَا تَرَىٰ﴾.[١]

٢. **ويكون بإلهام النبي في حالة اليقظة**، وإلقاء المعني في قلبه، من غير أن يرى الملك، كما قال (ﷺ): "**إن روح القدس نفث في روعي أنه لن تموت نفس حتى تستكمل رزقها فاتقوا الله وأجملوا في الطلب**".[٢]

٣. **ويكون بتكليم النبي من رواء حجاب، وبشكل مباشر ويسمع النبي الكلام** كما كلم الله سبحانه موسي (عليه السلام) من وراء الشجرة، كما نص على ذلك القرآن: ﴿فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِيَ مِن شَٰطِيِٕ ٱلْوَادِ ٱلْأَيْمَنِ فِي ٱلْبُقْعَةِ ٱلْمُبَٰرَكَةِ مِنَ ٱلشَّجَرَةِ أَن يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّيٓ أَنَا ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٣٠﴾.[٣]

٤. **ويكون بتكليم النبي بواسطة جبريل**، وهذه الصورة لها شكلان:

الشكل الأول: أن يأتيه الملك في مثل صلصلة الجرس[٤] وكان أشده عليه حتي إن جبينه ليعرق[٥] وحتى تبرك راحلته. وقد جاء الوحي مرة كذلك وفخذه (ﷺ) على فخذ زيد بن ثابت، فثقلت على فخذ زيد حتى كادت ترضها.

---

[١] سورة الصافات: آية (١٠٢).

[٢] قال السيوطي في "الإتقان" ١/٤٤: أخرجه الحاكم.

[٣] سورة القصص: الآية (٣٠).

[٤] قال الخطابي: والمراد أنه صوت متدارك يسمعه ولا يتثبته أول ما يسمعه حتى يفهمه بعد ["الإتقان" ١/٤٤].

[٥] انظر الحديث في "صحيح البخاري" ١/٣ وصحيح مسلم ٧/٨٢.

الشكل الثاني: أن يأتيه جبريل ويتمثل له رجلا، فيخاطبه، كما قال (ﷺ): "أحياناً يتمثل لي الملك رجلاً فيكلمني فأعي ما يقول"[1]. وزاد أبو عوانة في "صحيحه": "وهو أهونه عليَّ"[2].

وقد يرى الملك في صورته التي خلقه الله عليها، فيوحي إليه ما شاء الله أن يوحيه، وهذا وقع مرتين كما ذكر الله سبحانه في سورة النجم، وفي سورة التكوير، ففي صحيح مسلم[3] عن مسروق قال: كنت متكئاً عند عائشة، فقالت: يا أبا عائشة (وهي كنية مسروق) ثلاث من تكلم بواحدة منهن فقد أعظم على الله الفرية. قلت: ما هن؟ قالت: من زعم أن محمداً رأى ربه فقد أعظم على الله الفرية. قال: وكنت متكئاً فجلست، فقلت: يا أم المؤمنين، انظريني ولا تعجليني، أم يقل الله (ﷻ):﴿وَلَقَدْ رَءَاهُ بِٱلْأُفُقِ ٱلْمُبِينِ ﴿٢٣﴾﴾[4]، ﴿وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ﴿١٣﴾﴾[5]. فقالت أنا أول هذه الأمة من سأل ذلك رسول الله (ﷺ)، فقال: "إنما هو جبريل، لم أره على صورته التي خلق عليها غير هاتين المرتين، رأيته منهبطاً من السماء، ساداً عظم خلقه ما بين السماء والأرض". وقالت: أو لم تسمع أن الله (ﷻ) يقول: ﴿لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَٰرَ ۖ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ ﴿١٠٣﴾﴾[6]، أو لم تسمع أن الله (ﷻ) يقول: ﴿۞وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَآئِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا﴾[7]. قالت: ومن زعم أن

---

[1] صحيح البخاري ٣/١ وصحيح مسلم ٨٢/٧.

[2] الإتقان: ٤٤/١.

[3] صحيح مسلم: ١١٠/١.

[4] سورة التكوير: آية (٢٣).

[5] سورة النجم: آية (١٣).

[6] سورة الأنعام: آية (١٠٣).

[7] سورة الشورى: آية (٥١).

رسول الله (ﷺ) كتم شيئاً من كتاب الله فقد أعظم على الله الفرية، والله تعالى يقول: ﴿قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلْغَيْبَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾[1].

وهذه الصورة الرابعة وأعني الشكل الأول هي التي نزل بواسطتها القرآن.

[1] سورة النمل: آية (٦٥).

المبحث الثالث : آثار الوحي على الرسول (ﷺ)

صوَّر لنا الصحابة فيما أوردوا من وصف الرسول (ﷺ) آثار هذه الظاهرة: ظاهرة الوحي، فذكروا أن الرسول (ﷺ) كانت تبدو على وجهه الكريم إمارات معينة في كل مرة ينزل عليه القرآن.

وكان أمر هذه الظاهرة لا يخفي على أحد ممن ينظرون إليه، فكانوا –كما تروي الأحاديث الصحيحة ذلك– يرونه قد احمر وجهه فجأة، وأخذته البرجاء[1] حتى يتفصد جبينه عرقاً في اليوم البارد، وثقل جسمه حتى كاد يرض فخذه فخذ الجالس إلى جانبه، وحتى ولو كان راكباً لبركت راحلته.

وكانوا مع ذلك يسمعون عن وجهه (ﷺ) أصواتاً مختلطة تشبه دوي النحل[2]. ثم لا يلبث أن تسري عنه تلك الشدة فإذا هو يتلو قرآناً جديداً وذكراً للعالمين[3].

وقد ذكر الأستاذ المرحوم الدكتور محمد عبد الله دراز أن هذه الأوصاف كلها ثابتة في الأحاديث الصحيحة عند الشيخين، وأبي داود، والترمذي.[4]

---

[1] برحاء الحمى: شدة أذاها.

[2] انظر: "شرح السنة"، للبغوي ٥/١٧٧، وأخرجه أحمد والترمذي والحاكم.

[3] انظر: "النبأ العظيم"، ص٧١.

[4] انظر: "النبأ العظيم"، ص٧١.

المبحث الرابع: صدق ظاهرة الوحي

إن هذه الظاهرة العجيبة لا يمكن ان تكون متكلفة ولا مصنوعة، لاسيما إذا تأملنا تلك الأصوات المختلطة التي كانت تسمع عند الوجه النبوي الشريف.

ولو كانت صناعة وتكلفاً لكانت طوع يمينه، فكان لا يشاء يوماً أن يأتي بقرآن جديد إلا جاء به من هذا الطريق الذي اعتاد في تحضيره.[١]

وإليك بعض الأدلة على أن الوحي أمر لا يعود إلى النبي (ﷺ):

١. كانت تنزل بالنبي نوازل يتطلب لها حلاً، وكذلك كل من حوله، ولكنه لا يجد في شأنها قرآناً يقرؤه على الناس.[٢]

ومن هذه النوازل والأزمات حديث الإفك عن زوجه السيدة المصونة عائشة رضي الله عنها، فلقد أبطأ الوحي، وطال الانتظار والناس يخوضون في هذا الحديث المؤذي، وليكون عرض النبي النقي، حتى بلغت القلوب الحناجر، وهو لا يستطيع أن ينهي هذه المشكلة، ويحسم هذا الموضوع، ومضى شهر بأكمله وهو ينتظر رأي السماء، وما زاد على أن قال لها آخر الأمر: "يا عائشة أما إنه بلغني كذا وكذا، فإن كنت بريئة فسيبرئك الله، وإن كنت ألمت بذنب فاستغفري الله".[٣]

هذا كلام رجل من البشر لا يعلم الغيب، وكلام المتثبت الذي لا يتبع الظن ولا يقول ما ليس له به علم، على أنه لم يغادر مكانه بعد أن قال هذه الكلمات حتى نزل صدر سورة النور معلناً براءتها ومصدراً الحكم المبرم بشرفها وطهارتها.

---

[١] "النبأ العظيم": ص٧٢.

[٢] "المصدر السابق": ص١٦

[٣] انظر حديث الإفك في البخاري ٨٨/٦، ومسلم ١١٢/٨، وكتب الحديث والسيرة.

فماذا كان يمنعه –لو أن أمر القرآن إليه– أن يتقول هذه الكلمة الحاسمة من قبل، ليحمي بها عرضه، ويذب بها عن عرينه، ويقطع بها ألسنة القاذفين المتخرصين، وينسبها إلى الوحي؟ ولكنه ما كان ليذر الكذب على الناس ويكذب على الله.[1]

٢. وأخرى كان يجيئه القول فيها على غير ما يحبه ويهواه، فيخطئه في الرأي يراه، ويأذن له في الشيء لا يميل إليه، فمن ذلك قوله تعالى: ﴿وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا ٱللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى ٱلنَّاسَ وَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَىٰهُ﴾.[2]، وقوله تعالى: ﴿عَفَا ٱللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ وَتَعْلَمَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٤٣﴾﴾.[3]، وقوله تعالى: ﴿أَمَّا مَنِ ٱسْتَغْنَىٰ ﴿٥﴾ فَأَنتَ لَهُۥ تَصَدَّىٰ ﴿٦﴾ وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَزَّكَّىٰ ﴿٧﴾ وَأَمَّا مَن جَآءَكَ يَسْعَىٰ ﴿٨﴾ وَهُوَ يَخْشَىٰ ﴿٩﴾ فَأَنتَ عَنْهُ تَلَهَّىٰ ﴿١٠﴾﴾.[4]

لو كانت هذه التقريعات المؤلمة صادرة عن وجدانه، معبرة عن ندمه حين بدا له خلاف ما فرط من رأيه: أكان يعلنها عن نفسه بهذا التهويل؟ ألم يكن له في السكوت عنها ستر على نفسه واستبقاء لحرمة آرائه؟[5]

٣. ولقد كان يجيئه الأمر أحياناً بالقول المجمل، أو الأمر المشكل الذي لا يستبين هو ولا أصحابه تأويله حتى ينزل الله عليهم بيانه بعد. فهل هناك إنسان توحي إليه نفسه كلاماً لا يفهم هو معناه؟ وتأمر أمراً لا يعقل هو حكمته؟ أليس ذلك من الأدلة الواضحة على أنه ناقل لا قائل، وأنه مأمور لا آمر؟[6]

---

[1] "النبأ العظيم": ص١٧.

[2] سورة الأحزاب: آية (٣٧).

[3] سورة التوبة: آية (٤٣).

[4] سورة عبس: آية (٥–١٠).

[5] انظر: "النبأ العظيم"، ص١٨.

[6] انظر: "المصدر السابق"، ص٢١.

نزل قوله تعالى: ﴿وَإِن تُبْدُواْ مَا فِيٓ أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُم بِهِ ٱللَّهُ﴾.[1]، فأزعجت الصحابة إزعاجاً شديداً، وداخل قلوبهم منها شيء لم يداخلها من شيء آخر، لأنهم فهموا منها أنهم سيحاسبون على كل شيء حتى حركات القلوب وخطراتها، فقالوا: يارسول الله أنزلت علينا هذه الآية ولا نطيقها. فقال لهم النبي (ﷺ): "أتريدون أن تقولوا كما قال أهل الكتابين من قبلكم سمعنا وعصينا؟ بل قالوا: سمعنا وأطعنا عفرانك ربنا وإليك المصير" فجعلوا يتضرعون بهذه الدعوات حتى أنزل الله بيانها بقوله: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَاۚ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا ٱكْتَسَبَتْۗ﴾.[2]

فلو كان النبي (ﷺ) يعلم تأويلها من أول الأمر لبين لهم خطأهم ولأزال اشتباههم من فوره، لأنه لم يكن ليتكلم عنهم هذا العلم وهم في أشد الحاجة إليه.[3]

---

[1] سورة البقرة، آية (٢٨٤).

[2] سورة البقرة: الآية (٢٨٦).

[3] "النبأ العظيم": ص٢٢.

الفصل الثالث: حكمة نزول القرآن مفرقا

المبحث الأول: كيف نزل القرآن الكريم؟

نزول القرآن الكريم:

شرف الله هذه الأمة المحمدية، فأنزل عليها كتابه المعجز –خاتمة الكتب السماوية– ليكون دستوراً لحياتها، وعلاجاً لمشاكلها، وبلسماً شافياً لعللها وأمراضها، وآية مجد وفخار على اصطفاء هذه الأمة، واختيارها لحمل أقدس الرسالات السماوية، حيث أكرمها الله بإنزال أشرف كتاب، وخصها بالانتساب إلى أشرف مخلوق (محمد بن عبد الله) (ﷺ). وبنزول هذا القرآن اكتمل عقد الرسالات السماوية، فشع النور على العالم، وسطع الضياء على الكون، ووصلت هداية الله إلى الخلق، وكان هذا النزول بواسطة أمين السماء (جبريل) (عليه السلام)، يهبط به على قلب النبي (ﷺ) ليبلغه وحي الله، وفي ذلك يقول الله جل ثناؤه: ﴿نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ۝١٩٣ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ۝١٩٤ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ ۝١٩٥﴾.[1]

كيف نزل القرآن الكريم؟

للقرآن الكريم تنزّلان.

الأول: من اللوح المحفوظ إلى السماء الدنيا (جملة واحدة) في ليلة القدر.

الثاني: من السماء الدنيا إلى الأرض (مفرقاً) في مدة ثلاث وعشرين سنة.

١. التنزل الأول:

فقد كان في ليلة مباركة من ليالي الدهر هي (ليلة القدر)، أنزل فيه القرآن كاملاً إلى (بيت العزة) في السماء الدنيا، ويدل عليه عدة نصوص وهي:

١. قوله تعالى: ﴿حمٓ ۝١ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ۝٢ إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ ۝٣﴾.[2]

---

[1] سورة الشعراء: آية (١٩٣–١٩٥).

[2] سورة الدخان: (١–٣).

٢. وقوله تعالي: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةِ ٱلْقَدْرِ ۝١ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا لَيْلَةُ ٱلْقَدْرِ ۝٢﴾.[١]

٣. وقوله تعالي: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْهُدَىٰ وَٱلْفُرْقَانِ﴾.[٢]

فقد دلت هذه الآيات الثلاث علي أن القرآن أنزل في ليلة واحدة، توصف بأنها مباركة، وتسني (ليلة القدر) وهي من ليالي شهر رمضان، ويتعين أن يكون هذا النزول هو النزول الأول إلى بيت العزة في السماء، لأنه لو أريد به النزول الثاني على النبي (ﷺ) لما صح أن يكون في ليلة واحدة، وفي شهر واحد هو (شهر رمضان) لأن القرآن إنما نزل في مدة طويلة هي مدة البعثة (ثلاثة وعشرين عاماً)، ونزل في غير رمضان في جميع الأشهر، فتعين أن يكون المراد به (النزول الأول)، وقد جاءت الأخبار الصحيحة تؤيد ذلك منها:

١. عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال: "فُضل القرآن من الذكر فوضع في بيت العزة من السماء الدنيا، فجعل جبريل ينزل به على النبي (ﷺ)".[٣]

٢. وعن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال: "أُنزل القرآن جملة واحدة إلى سماء الدنيا، وكان بمواقع النجوم، وكان الله ينزله على رسوله (ﷺ) بعضه في إثر بعض".[٤]

٣. وروى عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال: "أُنزل القرآن في ليلة القدر في شهر رمضان إلى السماء الدنيا جملة واحدة، ثم أنزل نجوماً"[٥]، قوله نجوماً: أي أجزاء متفرقة.

---

[١] سورة القدر: آية (١-٢).

[٢] سورة البقرة: آية (١٨٥).

[٣] رواه الحاكم.

[٤] رواه الحاكم والبيهقي.

[٥] رواه الطبراني.

فهذه الروايات الثلاث رواها السيوطي في كتابه (الإتقان في علوم القرآن)، وبين أنها كلها صحيحة، كما روى (السيوطي) أيضاً عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه سأله (عطية بن الأسود) فقال: (أوقع في قلبي الشك قوله تعالي: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ﴾.[1]، وقوله: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةِ ٱلْقَدْرِ ۝١﴾.[2]، وهذا أُنزل في شوال، وفي ذي القعدة، وفي ذي الحجة، وفي محرم، وشهر ربيع، فقال ابن عباس: إنه أنزل في رمضان في ليلة القدر، جملة واحدة، ثم أُنزل على مواقع النجوم رسلاً في الشهور والأيام).

يريد بقوله (مواقع النجوم) وبقوله (رسلاً) أي أنه أنزل منجماً مفرقاً، يتلو بعضه بعضاً على تؤدة ورفق، وذكر (السيوطي) أن القرطبي نقل حكاية الإجماع على نزول القرآن جملة من اللوح المحفوظ إلى بيت العزة في السماء الدنيا، ولعل الحكمة في هذا النزول هي: تفخيم أمر القرآن، وأمر من نزل عليه، بإعلام سكان السماوات السبع أن هذا آخر الكتب المنزلة على خاتم الرسل لأشرف الأمم قد قربناه إليهم لننزله عليهم. قال السيوطي: (ولولا أن الحكمة الإلهية اقتضت وصوله إليهم منجماً بحسب الوقائع لهبط به إلى الأرض جملة كسائر الكتب المنزلة قبلة، ولكن الله سبحانه باين (أي خالف) بينه وبينها، فجعل له الأمرين: إنزاله جملة، ثم إنزاله مفرقاً، تشريفاً للمُنْزَل عليه).[3]

٢. التنزيل الثاني:

وأما التنزيل الثاني فقد كان من السماء الدنيا على قلب النبي (ﷺ) منجماً (أي مفرقاً) في مدة ثلاث وعشرين سنة وهي من حين البعثة إلى حين وفاته صلوات الله وسلامه عليه، والدليل على هذا النزول وأنه نزل منجماً قول الله تعالى: ﴿وَقُرْءَانًا فَرَقْنَٰهُ لِتَقْرَأَهُۥ عَلَى ٱلنَّاسِ عَلَىٰ

---

[1] سورة البقرة: آية (١٨٥).

[2] سورة القدر: آية (١).

[3] الإتقان: ج١، ص٤٢.

مُكۡثٖ وَنَزَّلۡنَٰهُ تَنزِيلٗا ١٠٦﴾.[1]، وقوله تعالى:﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوۡلَا نُزِّلَ عَلَيۡهِ ٱلۡقُرۡءَانُ جُمۡلَةٗ وَٰحِدَةٗۚ كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَۖ وَرَتَّلۡنَٰهُ تَرۡتِيلٗا ٣٢﴾.[2]

روي أن اليهود والمشركين عابوا على النبي (ﷺ) نزول القرآن مفرقاً، واقترحوا عليه أن ينزل جملة واحدة حتى قال اليهود له: يا أبا القاسم لولا أنزل هذا القرآن جملة واحدة كما أنزلت التوراة على موسى، فأنزل الله هاتين الآيتين رداً عليهم، وهذا الرد –كما يقول الزرقاني– يدل على أمرين:

أحدهما: أن القرآن نزل مفرقاً على النبي (ﷺ).

والثاني: أن الكتب السماوية قبله نزلت جملة، كما اشتهر ذلك جمهور العلماء حتى كاد يكون إجماعاً.

ووجه الدلالة على هذين الأمرين: أن الله تعالى لم يكذبهم فيما ادعوا من نزول الكتب السماوية جملة، بل أجابهم ببيان الحكمة في نزول القرآن مفرقاً، ولو كان نزول الكتب السماوية مفرقاً كالقرآن لرد عليهم بالتكذيب، وبإعلان أن التنجيم هو سنة الله فيما أنزل على الأنبياء من قبل، كما رد عليهم حين طعنوا على الرسول وقالوا: "ما لهذا الرسول يأكل الطعام ويمشي في الأسواق".[3] رد عليهم بقوله: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا قَبۡلَكَ مِنَ ٱلۡمُرۡسَلِينَ إِلَّآ إِنَّهُمۡ لَيَأۡكُلُونَ ٱلطَّعَامَ وَيَمۡشُونَ فِي ٱلۡأَسۡوَاقِۗ﴾.[4]

---

[1] سورة الإسراء: آية (١٠٦).

[2] سورة الفرقان: آية (٣٢).

[3] منهل العرفان: ص٤٦.

[4] سورة الفرقان: آية (٢٠).

المبحث الثاني: حكمة نزول القرآن منجما

لنزول القرآن منجماً حكمة جليلة، وأسرار عديدة عرفها العاملون، وغفل عنها الجاهلون، ونستطيع أن نجملها فيما يأتي وهي:

أولاً: تثبيت قلب النبي (ﷺ) أمام أذى المشركين.

ثانياً: التلطف بالنبي (ﷺ) عند نزول الوحي.

ثالثاً: التدرج في تشريع الأحكام السماوية.

رابعاً: تسهيل حفظ القرآن وفهمه على المسلمين.

خامساً: مسايرة الحوادث والوقائع، والتنبيه عليها في حينها.

سادساً: الإرشاد إلى مصدر القرآن، وأنه تنزيل الحكيم الحميد.

ولنتكلم بشيء من التفصيل عن هذه الحكم العديدة التي أجملناها فيما سبق فنقول ومن الله نستمد العون:

أولاً: أما الحكمة الأولى وهي (**تثبيت قلب النبي (ﷺ)**) فقد ذكرتها الآية الكريمة في معرض الرد على المشركين، حين اقترحوا أن ينزل القرآن جملة واحدة كما نزلت الكتب السماوية السابقة فردّ الله عليهم بقوله: ﴿كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَ ۖ وَرَتَّلْنَٰهُ تَرْتِيلًا ﴿٣٢﴾﴾[1]، وتثبيت قلب النبي (ﷺ) إنما هو رعاية من الله وتأييد لرسوله أمام تكذيب خصومه له، وإيذائهم الشديد له ولأتباعه، فقد كانت الآيات الكريمة تنزل على رسول الله (ﷺ) (تسلية) له وشحذاً لهمته، للمضي في طريق الدعوة مهما اعترضته المصاعب والشدائد، وتقوية لقلبه الشريف، فقد تعهد الله (ﷻ) بما يخفف عنه الشدائد والآلام فكان إذا اشتد الأذي عليه نزلت الآيات

[1] سورة الفرقان: آية (٣٢).

تسلية له، وتخفيفاً عما يلقاه، وكانت التسلية تارة عن طريق قصص الأنبياء والمرسلين، ليقتدى بهم في صبرهم وجهادهم، كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبَرُواْ عَلَىٰ مَا كُذِّبُواْ وَأُوذُواْ حَتَّىٰٓ أَتَىٰهُمْ نَصْرُنَا﴾[1]، وقوله تعالي: ﴿فَٱصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُوْلُواْ ٱلْعَزْمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ﴾[2]، وقوله: ﴿وَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا﴾[3].

وقد أوضح الباري جلت عظمته الحكمة من ذكر قصص الأنبياء فقال وهو أصدق القائلين: ﴿وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِۦ فُؤَادَكَ وَجَآءَكَ فِى هَٰذِهِ ٱلْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾.[4]، وتارة كانت التسلية عن طريق الوعد بالنصر، والتأييد للنبي (ﷺ)، كقوله تعالي: ﴿وَيَنصُرَكَ ٱللَّهُ نَصْرًا عَزِيزًا﴾[5]، وكقوله: ﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا ٱلْمُرْسَلِينَ إِنَّهُمْ لَهُمُ ٱلْمَنصُورُونَ وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ﴾[6].

وأخري تكون التسلية عن طريق إخبار الرسول باندحار أعدائه وانهزامهم، كما في قوله تعالي: ﴿سَيُهْزَمُ ٱلْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ ٱلدُّبُرَ﴾[7]، وقوله: ﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ سَتُغْلَبُونَ وَتُحْشَرُونَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ﴾[8]، إلى آخر ما هناك من ألوان في التخفيف عن قلب الرسول، وتطييب نفسه وفؤاده، ولا شك أن في تجدد نزول الوحي، وتكرر هبوط الأمين جبريل بالآيات البينات، التي فيها تسلية للنبي (ﷺ) وفيها الوعد بالنصر والحفظ والتأييد، كان لها أعظم الأثر في

---

[1] سورة الأنعام: آية (٣٤).

[2] سورة الأحقاف: آية (٣٥).

[3] سورة الطور: آية (٤٨).

[4] سورة هود: آية (١٢٠).

[5] سورة الفتح: آية (٣).

[6] سورة الصافات: آية (١٧١-١٧٣).

[7] سورة القمر: آية (٤٥).

[8] سورة آل عمران: آية (١٢).

تثبيت قلب الرسول لمتابعة الدعوة، والمضي في تبليغ الرسالة الإلهية، لأن الله معه، وهل يشعر بالخذلان والفتور من كانت عناية الله تحوطه وعينه ترعاه؟

ثانياً: أما الحكمة الثانية وهي **(التلطف بالنبي (ﷺ))** عند نزول الوحي، فقد كانت بسبب روعة القرآن وهيبته، كما قال تعالي: ﴿إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا ۝﴾[1]، فالقرآن – كما هو مقطوع به– كلام الله المعجز، الذي له جلال ووقار، وهيبة وروعة، وهو الكتاب الذي لو نزل علي جبل لتفتت وتصدع من هيبته وجلاله، كما قال تعالي: ﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُۥ خَٰشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ﴾[2]، فكيف إذن بقلب النبي الرقيق، هل يستطيع أن يتلقي جميع القرآن دون أن يتأثر ويضطرب، ويشعر بروعة القرآن وجلاله!! ولقد أوضحت السيدة عائشة حال الرسول حين ينزل عليه القرآن، وما يلاقيه من شده وهول من أثر التنزيل فقالت (كما رواه البخاري): "ولقد رأيته حين ينزل عليه الوحي في اليوم الشديد البرد فيفصم عنه (أي ينفصل) وإن جبينه ليتفصد عرقاً"[3].

ثالثاً: وأما الحكمة الثالثة وهي **(التدرج في تشريع الأحكام)** فقد كانت جليه واضحه، حيث سلك القرآن الكريم مع البشرية –وخاصة منهم العرب– طريق الحكمة، ففطمهم عن الشرك، وأحيا قلوبهم بنور الإيمان، وغرس في نفوسهم حب الله ورسوله، والإيمان بالبعث والجزاء، ثم انتقل بهم بعد هذه المرحلة –مرحلة تثبيت دعائم الإيمان– إلى العبادات، فبدأهم بالصلاة قبل الهجرة، ثم ثنّى بالصوم وبالزكاة في السنة الثانية من الهجرة، ثم ختم بالحج في السنة السادسة منها، وكذلك فعل في العادات المتوارثة. زجرهم أولاً عن الكبائر، ثم نهاهم عن الصغائر في شيء من الرفق، وتدرج بهم في تحريم ما كان مستأصلاً في نفوسهم

---

[1] سورة المزمل: آية (٥).

[2] سورة الحشر: آية (٢١).

[3] يتفصد: أي يتصبب عرقاً وذلك من شدة الوحي ووطأته على النبي (ﷺ).

كالخمر والربا والميسر، تدرجاً حكيماً، استطاع بذلك أن يقتلع الشر والفساد من جزوره اقتلاعاً كاملاً، ولنأخذ بعض الأمثلة على ذلك التشريع الحكيم، **الذي نجح في انتهاجه القرآن في معالجة الأمراض الاجتماعية (كتحريم الخمر)** الذي كان داءً مستشرياً عند العرب، كيف استطاع أن يمحوه ويقضي عليه الإسلام؟ **لقد انتهج القرآن في تحريمه أربعة مراحل، كما هو الشأن في تحريم الربا**، فلم يحرمه دفعة واحدة، لأنهم كانوا يتعاطون شرب الخمر كما يشرب الواحد منا الماء الزلال، فلم يكن من الحكمة أن يحرمه عليهم دفعة واحدة، وإنما حرمه بالتدريج، فبدأ **أولاً:** بالتنفير منه بطريق غير مباشر، فنزل قوله تعالي: ﴿وَمِن ثَمَرَٰتِ ٱلنَّخِيلِ وَٱلۡأَعۡنَٰبِ تَتَّخِذُونَ مِنۡهُ سَكَرٗا وَرِزۡقًا حَسَنًاۚ﴾[1]، فقد أخبر تعالي أنه قد أنعم على الناس بهاتين الشجرتين (النخيل، والأعناب) يستخرجون منها (السكر) أي الخمر الذي يسكر و(الرزق الحسن) الذي ينتفع منه الناس من مأكول ومشروب، فمدح الثاني ووصفه بأنه رزق حسن، وأخبر عن الأول بأنه (سكر) أي شيء يسكر ويذهب بعقل الإنسان، وبهذه المباينة في الوصف يتضح لكل عاقل الفارق الكبير بين الأمرين المذكورين.

المرحلة الثانية: جاء التنفير المباشر عن طريق المقارنة العملية بين شيئين: شيء فيه نفع مادي ضئيل، وشيء فيه ضرر جسمي وصحي وعقلي جسيم، وفيه كذلك زيادة على الأضرار العظيمة مهلكة للإنسان عن طريق وقوعه في الإثم الكبير، استمع إلى قوله تعالي: ﴿۞يَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلۡخَمۡرِ وَٱلۡمَيۡسِرِۖ قُلۡ فِيهِمَآ إِثۡمٞ كَبِيرٞ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ وَإِثۡمُهُمَآ أَكۡبَرُ مِن نَّفۡعِهِمَاۗ﴾[2]، والمراد بالمنافع هنا: المنافع المادية التي كانوا يستفيدونها من وراء التجارة والبيع للخمر حيث يربحون منها، كما يربحون من وراء الميسر، وقد جمع القرآن بين الخمر والميسر في الآية الكريمة، ولا شك أن النفع في الميسر (مادي) بحت حيث يربح بعض

---

[1] سورة النحل: آية (٦٧).

[2] سورة البقرة: آية (٢١٩).

المقامرين، فكذلك في الخمر، قال العلامة القرطبي في تفسيره عند هذه الآية قوله تعالي: ﴿وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ﴾، أما في الخمر فربح التجارة، فإنهم كانوا يجلبونها من الشام برُخْصٍ، فيبيعونها فيبيعونها في الحجاز بربح، (هذا أصح ما قيل في منفعتها)، وبالمقارنة بين هذين الشيئين تبين أن الإسلام نفر من الخمر عن طريق بيان أضرارها الجسيمة ولكنه لم يحرمها، وقد روي سبب نزول هذه الآية أن جماعة من المسلمين فيهم عمر بن الخطاب جاءوا إلى الرسول الكريم فقالوا يا رسول الله: أخبرنا عن الخمر؟ فإنها مذهبة للعقل، مضيعة للمال، منهكة للجسم؟ فأنزل الله (ﷻ):﴿۞يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ﴾.

وفي المرحلة الثالثة: كان التحريم للخمر، ولكنه كان (تحريماً جزئياً) حيث نزل قوله تعالي: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَقْرَبُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنتُمْ سُكَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَعْلَمُواْ مَا تَقُولُونَ﴾[1]، فقد حرم الله عليهم الخمر وقت الصلاة فقط حتى يصحوا من سكرهم، فكان المسلمون يشربونها ليلاً، وفي غير أوقات الصلاة، وقد روي في سبب نزول هذه الآية أن (عبد الرحمن بن عوف) صنع وليمة فدعا إليها بعض الصحابة، قال (علي بن أبي طالب) فدعانا وسقانا الخمر، فأخذت الخمر منا، وحضرت الصلاة فقدموني لأصلي بهم إماماً فقرأت: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ * أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ* ونحنُ نَعْبُدُ مَّا عَبَدتُّمْ﴾، إلى آخر ذلك، أي أنه لسكره غير فيها، فنزلت الآية الكريمة.

وفي المرحلة الرابعة: وهي المرحلة الأخيرة كان التحريم الكليّ، القاطع المانع، حيث نزل قوله تعالي: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلْخَمْرُ وَٱلْمَيْسِرُ وَٱلْأَنصَابُ وَٱلْأَزْلَٰمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ فَٱجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ۝٩٠ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ فِى ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَعَنِ ٱلصَّلَوٰةِ ۖ فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ ۝٩١﴾[2]، وسبب نزول هذه الآيات الكريمة

---

[1] سورة النساء: آية (٤٣).

[2] سورة المائدة: آية (٩٠-٩١).

على ما ذكره المفسرون هو: أن بعض الصحابة صلوا العشاء ثم شربوا الخمر، وجلسوا يتسامرون، فلعبت الخمر في رؤوسهم وكان فيهم (حمزة بن عبد المطلب) عن النبي (ﷺ)، وكانت جارية صغيرة تنشدهم وتغنيهم، فقالت ضمن نشيدها:

ألا يـا حمــزُ للشُـــرفِ النـــوّاءِ ** وهـــنّ مُعَقّـــــلاتِ بالفنـــــــاءِ

تهيج حمزة على النوق (الأبل) التي كانت بجوار الدار، فقام حمزة فجبّ أسنمة ناقتي (عليّ) وبقر خاصرتيها –وهو في حالة السكر– فأخبر عليٌّ بذلك، فتألم أشد الألم، وذهب إلى النبي (ﷺ) يشكو إليه ما فعل عمه (حمزة)، فجاء النبي (ﷺ) إليه يعاتبه ويلومه على صنيعه، فجعل حمزة ينظر إليه نظرة غريبة (يصوب بصره ويخفضه)، ثم خاطب النبي (ﷺ) ومن معه بقوله: وهل أنتم إلا عبيد لأبي؟ فعلم رسول الله (ﷺ) أن عمه ثمل (أي سكران) فلم يؤاخذه، فقال عمر عندئذ: اللهم بيّن لنا في الخمر بياناً شافياً، فأنزل الله: ﴿إِنَّمَا ٱلْخَمْرُ وَٱلْمَيْسِرُ وَٱلْأَنصَابُ وَٱلْأَزْلَٰمُ رِجْسٌ﴾[1]، وهكذا تم تحريم الخمر تحريماً (بالتدريج)، فكان في ذلك أعظم حكمة جليلة سلكها الإسلام في معالجة الأمراض الاجتماعية، وقد جاء في كتاب (مناهل العرفان) للزرقاني ما نصه: (وتدرج الإسلام بهم في تحريم ما كان مستأصلاً فيهم كالخمر، تدرجاً حكيماً حقق الغاية، وأنقذهم من كابوسها في النهاية، وكان الإسلام في إنتهاج هذه الخطة المثلي أبعد نظراً، وأهدى سبيلاً، وأنجح تشريعاً، وأنجع سياسة، من تلكم الأمم المتمدينة المتحضرة التي أفلست في تحريم الخمر على شعوبها أفظع إفلاس، وفشلت أمر فشل، وما عهد أمريكا في مهزلة تحريمها الخمر ببعيد!! أليس ذلك إعجازاً للإسلام في سياسة الشعوب، وتهذيب الجماعات، بلي والتاريخ من الشاهدين.

[1] سورة المائدة: آية (٩٠).

أما الحكمة الرابعة: فهي **(تسهيل حفظ القرآن)** على المسلمين، وفهمهم وتدبرهم له، فمن العلوم أن العرب كانوا أميين (أي لا يقرءون ولا يكتبون) وقد سجل القرآن الكريم عليهم ذلك في قوله تعالي: ﴿هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِهِۦ﴾[1]، كما كان صلوات الله عليه أمياً كذلك: ﴿ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِىَّ ٱلْأُمِّىَّ﴾[2]، فاقتضت حكمة الله أن ينزل كتابه المجيد (منجما) ليسهل حفظه على المسلمين، لأنهم كانوا يعتمدن على ذاكرتهم، فكانت صدورهم أناجيلهم كما ورد في وصف أمة محمد (ﷺ)، وأدوات الكتابة لم تكن ميسورة لدى الكاتبين منهم على ندرتهم، فلو نزل القرآن جملة واحدة لعجزوا عن حفظه، وعجزوا بالتالي عن تدبره وفهمه!!

أما الحكمة الخامسة: فهي **(مسايرة الحوادث والوقائع في حينها)** والتنبيه على الأخطاء في وقتها، فإن ذلك أوقع في النفس وأدعي إلى أخذ العظة والعبرة منها عن طريق (الدرس العملي) فكلما جد منهم جديد نزل من القرآن ما يناسبه، وكلما حصل منهم خطأ أو انحراف نزل القرآن بتعريفهم وتنبيههم إلى ما ينبغي اجتنابه ولطلب عمله، ونبههم إلى مواطن الخطأ في ذلك الوقت والحين، خذ مثلاً على ذلك (غزوة حنين) فقد دخل الغرور إلى نفوس المسلمين، وقالوا قولة الإعجاب والاغترار لما رأوا عددهم يزيد على عدد المشركين أضعافاً مضاعفة، حينذاك داخلهم العجب فقالوا (لن نغلب اليوم من قلة) وكانت النتيجة انكسارهم وانهزامهم وتوليهم الأدبار، وفي ذلك يقول القرآن الكريم: ﴿وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْـًٔا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ ۝٢٥﴾[3]، ولو أن القرآن نزل جملة واحدة لما أمكن التنبيه على الخطأ في حينه، إذ كيف يتصور أن تنزل الآيات

---

[1] سورة الجمعة: آية (٢).

[2] سورة الأعراف: آية (١٥٧).

[3] سورة التوبة: آية (٢٥).

في شأن المؤمنين واغترارهم ولم تحدث بعد تلك الواقعة أو الغزوة؟ وكذلك الحال في أخذ الفداء من الأسري في (بدر)، حيث نزل التوجيه السماوي الرائع: ﴿مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسۡرَىٰ حَتَّىٰ يُثۡخِنَ فِي ٱلۡأَرۡضِۚ﴾[1].

أما الحكمة السادسة: فهي **(الإرشاد إلى مصدر القرآن الكريم، وأنه تنزيل الحكيم الحميد)** وفي هذه الحكمة الجليلة يجدر بنا أن ننقل نص ما كتبه العالم الفاضل الشيخ (محمد عبد العظيم الزرقاني) في كتابه: مناهل العرفان حيث جاء برائع البيان، فقال رحمه الله تعالي: (الإرشاد إلى مصدر القرآن، وأنه كلام الله وحده، وأنه لا يمكن أن يكون كلام محمد (ﷺ) ولا كلام مخلوق سواه .. وبيان ذلك: أن القرآن الكريم نقرؤه من أوله إلى آخره، فإذا هو محكم السرد، دقيق السبك، متين الأسلوب، قوي الأتصال، آخذ بعضه برقاب بعض في سوره وآياته وجمله، يجري دم الإعجاز فيه كله من ألفه إلى يائه، كأنه سبيكة واحدة، ولا يكاد يوجد بين أجزائه تفكك ولا تخاذل، كأنه سمط وحيد، وعقد فريد، يأخذ بالأبصار، نظمت حروفه وكلماته، ونسقت جمله وآياته .. وهنا نتساءل: كيف اتسق للقرآن هذا التأليف المعجز؟ وكيف استقام له هذا التناسق المدهش؟ على حين أنه لم يتنزل جملة واحدة، بل تنزل آحاداً مفرقة تفرق الوقائع والحوادث في أكثر من عشرين عاماً!!

الجواب: أننا نلمح هنا سراً جديداً من أسرار الإعجاز، ونشهد سمة فذة من سمات الربوبية ونقرأ دليلاً ساطعاً على مصدر القرآن، وأنه كلام الواحد الديّان: ﴿وَلَوۡ كَانَ مِنۡ عِندِ غَيۡرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ ٱخۡتِلَٰفٗا كَثِيرٗا ٨٢﴾[2]؟ وإلا فحدثني بربك كيف تستطيع أنت؟ أم كيف يستطيع الخلق جميعاً أن يأتوا بكتاب محكم الاتصال والترابط، متين النسج والسرد، متآلف

---

[1] سورة الأنفال: آية (٦٧).

[2] سورة النساء: آية (٨٢).

البدايات والنهايات، مع خضوعه في التأليف لعوامل خارجه عن مقدور البشر، وهي (وقائع الزمن وأحداثه) التي يجيء كل جزء من أجزاء هذا الكتاب تبعاً لها، ومحدثاً عنها، سبباً بعد سبب، وداعية، مع اختلاف ما بين هذه الدواعي، وتغاير ما بين تلك الأسباب، ومع تراخي زمان هذا التأليف، وتطاول آماد هذه النجوم إلى أكثر من عشرين عاماً؟!

لا ريب أن هذا الانفصال الزماني، وذلك الاختلاف الملحوظ بين هاتيك الدواعي، يستلزمان في مجري العادة (التفكك والانحلال)، ولا يدعان مجالاً للارتباط والاتصال، بين نجوم هذا الكلام، أما القرآن الكريم فقد خرق العادة في هذه الناحية أيضاً .. نزل مفرقاً منجماً، ولكنه تم مترابطاً محكماً، أليس ذلك برهاناً ساطعاً على أنه كلام خالق القوى والقدر، ومالك الأسباب والمسببات، ومدبر الخلق والكائنات، وقيوم الأرض والسماوات، العليم بما كان وما سيكون، الخبير بالزمان وما يحدث فيه من شئون؟؟

لاحظ فوق ما أسلفنا أن رسول الله (ﷺ) كان إذا نزلت عليه آية أو آيات قال: "ضعوها في مكان كذا، من سورة كذا" وهو بشر لا يدري ما ستجيئ به الأيام، ولا يعلم ما سيكون في مستقبل الزمان، ولا يدرك ما سيحدث من الدواعي والأحداث، فضلاً عمّا سينزل من الله فيها .. وهكذا يمضي العمر الطويل والرسول على هذا العهد، يأتيه الوحي بالقرآن نجماً بع نجم، وإذا القرآن كله بعد هذا العمر الطويل يكمل ويتم، وينظم ويتآخي، ويأتلف ويلتئم، ولا يؤخذ عليه أدنى تخاذل ولا تفاوت، بل يعجز الخلق طراً بما فيه من انسجام ووحده وترابط: ﴿كِتَٰبٌ أُحْكِمَتْ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ۝١﴾[1].

وإنه ليستبين لك سر هذا الإعجاز إذا ما علمت أن محاولة مثل هذا الاتساق والانسجام، لن يمكن أن يأتي على هذا النمط الذي ينزل به القرآن، ولا على قريب من هذا النمط، ولا

[1] سورة هود: آية (١).

في كلام الرسول (ﷺ) ولا كلام غيره من البلغاء وغير البلغاء .. خذ مثلاً (حديث النبي (ﷺ)) وهو ما هو في روعته وبلاغته وطهره وسموه، لقد قاله الرسول (ﷺ) في مناسبات مختلفة، لدواع متباينة، في أزمات متطاولة، فهل في مكنتك ومكنة البشر معك أن ينظموا من هذا السرد الشتيت وحده، كتاباً واحداً يصقله الاسترسال والواحدة من غير أن ينقصوا منه، أو يتزيدوا عليه، أو يتصرفوا فيه؟؟ ذلك ما لن يكون، ولا يمكن أن يكون، ومن حاول ذلك فإنما يحاول العبث، ويخرج للناس بثوب مرّقع، وكلام ملفّق، ينقصه الترابط والانسجام، ويعوزه الوحدة والاسترسال، وتمده الأسماع والأفهام، إذن: فالقرآن الكريم ينطق نزوله منجماً بأنه كلام الله وحده، وتلك حكمة جليلة الشأن، تدل الخلق على الحق في مصدر القرآن!!

﴿قُلْ أَنزَلَهُ ٱلَّذِى يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ۝٦﴾[1].!!

[1] سورة الفرقان: آية (٦).

المبحث الثالث: معرفة أول ما نزل وآخر ما نزل وفوائده

تمهيد:

التعبير عن تلقي رسول الله (ﷺ) للقرآن بنزوله عليه يشعر بقوة يلمسها المرء في تصور كل هبوط من أعلي، ذلك لعلو منزلة القرآن، وعظمة تعاليمه، التي حولت مجري حياة البشرية، وأحدثت فيها تغيراً ربط السماء بالأرض، ووصل الدنيا بالآخرة، ومعرفة تاريخ التشريع الإسلامي في مصدره الأول والأصيل –وهو القرآن– تعطي الدارس صورة عن التدرج في الأحكام، ومناسبة كل حكم للحال التي نزل فيها، دون تعارض بين السابق والاحق، وقد تناول هذا أول ما نزل من القرآن على الإطلاق، وآخر ما نزل على الإطلاق، كما تناول أول ما نزل وآخر ما نزل في التشريع من تعاليم الإسلام، كالأطعمة والأشربة، والقتال، ونحو ذلك.

وللعلماء في أول ما نزل من القرآن على الإطلاق، وآخر ما نزل كذلك أقوال، نجملها ونرجح بينها فيما يأتي:

أول ما نزل:

١. أصح الأقوال أن أول ما نزل هو قوله تعالي: ﴿ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلَّذِي خَلَقَ ۝١ خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ مِنۡ عَلَقٍ ۝٢ ٱقۡرَأۡ وَرَبُّكَ ٱلۡأَكۡرَمُ ۝٣ ٱلَّذِي عَلَّمَ بِٱلۡقَلَمِ ۝٤ عَلَّمَ ٱلۡإِنسَٰنَ مَا لَمۡ يَعۡلَمۡ ۝٥﴾[1]، ويدل عليه ما رواه الشيخان وغيرهما عن عائشة رضي الله عنها قالت: "أول ما بدئ به رسول الله (ﷺ) من الوحي، الرؤيا الصادقة في النوم، فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح، ثم حبب إليه الخلاء، فكان يأتي حراء، فيتحنث فيه الليالي ذوات العدد، ويتزود لذلك، ثم يرجع إلى خديجة رضي الله عنها، فتزوده لمثلها، حتى فاجأه

[1] سورة العلق: آية (١–٥).

الحق وهو في غار حراء، فجاءه الملك فيه، فقال اقرأ، قال رسول الله (ﷺ): فقلت: م أنا بقارئ، فأخذني فغطني حتى بلغ مني الجهد، ثم أرسلني فقال: اقرأ. قلت ما أنا بقارئ، فغطني الثانية حتى بلغ مني الجهد، ثم أرسلني فقال: اقرأ. فقلت: ما أنا بقارئ، فغطني الثالثة حتى بلغ مني الجهد، ثم أرسلني فقال: ﴿ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلَّذِي خَلَقَ ۝١﴾ حتى بلغ ﴿مَا لَمۡ يَعۡلَمۡ﴾، فرجع بها رسول الله (ﷺ) ترجف بوادره .. الحديث.

٢. **وقيل إن أول ما نزل هو قوله تعالي:** (يا أيها المدثر)، لما رواه الشيخان عن أبي سلمة بن عبد الرحمن قال: سألت جابر بن عبد الله: أي القرآن أنزل قيل؟ قال: يا أيها المدثر، قلت: أو اقرأ باسم ربك؟ قال: أحدثكم ما حدثنا به رسول الله (ﷺ): إني جاورت بحراء، فلما قضيت جواري نزلت، فاستبطنت الوادي، فنظرت أمامي وخلفي وعن يميني وشمالي، ثم نظرت إلى السماء، فإذا هو –يعني جبريل– فأخذتني رجفة، فأتيت خديجة، فأمرتهم فدثروني، فأنزل الله ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُدَّثِّرُ ۝١ قُمۡ فَأَنذِرۡ ۝٢﴾[1].

وأجيب عن حديث جابر بأن السؤال كان نزول سورة كاملة، فبين جابر أن سورة المدثر نزلت بكاملها قبل نزول تمام سورة اقرأ، فإن أول ما نزل منها صدرها، ويؤيد هذا ما في الصحيحين أيضاً، عن أبي سلمة، عن جابر، قال: سمعت رسول الله (ﷺ) وهو يتحدث عن فترة الوحي فقال في حديثه: بينما أنا أمشي، سمعت صوتاً من السماء، فرفعت رأسي، فإذا الملك الذي جائني بحراء، جالس على كرسي بين السماء والأرض، فرجعت، فقلت: زملوني، فدثروني، فأنزل الله (يا أيها المدثر) فهذا الحديث يدل على أن هذه القصة متأخرة عن قصة حراء –أو تكون المدثر أول سورة نزلت بعد فترة الوحي– وقد استخرج جابر ذلك باجتهاده، فتقدم عليه رواية عائشة، ويكون أول ما نزل من القرآن على الإطلاق (اقرأ)،

[1] سورة المدثر: آية (١–٢).

وأول سورة نزلت كاملة، أو أول ما نزل بعد فترة الوحي (يا أيها المدثر)، أو أول ما نزل للرسالة (يا أيها المدثر) وللنبوة (اقرأ).

آخر ما نزل:

١. قيل آخر ما نزل آية الربا: لما أخرجه البخاري عن ابن عباس قال: "آخر آية نزلت آية الربا" والمراد بها قوله تعالي: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَذَرُواْ مَا بَقِىَ مِنَ ٱلرِّبَوٰٓاْ﴾[١].

٢. **وقيل آخر ما نزل من القرآن قوله تعالي:** ﴿وَٱتَّقُواْ يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى ٱللَّهِ﴾[٢]، لما رواه النسائي وغيره عن ابن عباس وسعيد ابن جبير: "اخر شيء نزل من القرآن: ﴿وَٱتَّقُواْ يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى ٱللَّهِ﴾[٣].

٣. **وقيل آخر ما نزل آية الدين:** لما روي عن سعيد بن المسيب: "أنه بلغه أن أحدث القرآن عهدا بالعرش آية الدين" والمراد بها: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا تَدَايَنتُم بِدَيْنٍ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَٱكْتُبُوهُ﴾[٤].

ويجمع بين الروايات الثلاث بأن هذه الآيات نزلت دفعة واحدة كترتيبها في المصحف، آية الربا، فآية "واتقوا يوماً" فآية الدين، لأنها في قصة واحدة، فأخبر كل راو عن بعض ما نزل بأنه آخر، وذلك صحيح، وبهذا لا يقع التنافي بينها.

أوائل موضوعية:

وتناول العلماء أوائل ما نزل بالنسبة إلى موضوعات خاصة، ومن ذلك:

---

[١] سورة البقرة: آية (٢٧٨).

[٢] سورة البقرة: آية (٢٨١).

[٣] سورة البقرة: آية (٢٨٢).

[٤] سورة البقرة: آية (٢٨٢).

١. **أول ما نزل في الأطعمة:** أول آية نزلت بمكة آية الأنعام: ﴿قُل لَّآ أَجِدُ فِي مَآ أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَىٰ طَاعِمٖ يَطۡعَمُهُۥٓ إِلَّآ أَن يَكُونَ مَيۡتَةً أَوۡ دَمٗا مَّسۡفُوحًا أَوۡ لَحۡمَ خِنزِيرٖ فَإِنَّهُۥ رِجۡسٌ أَوۡ فِسۡقًا أُهِلَّ لِغَيۡرِ ٱللَّهِ بِهِۦۚ فَمَنِ ٱضۡطُرَّ غَيۡرَ بَاغٖ وَلَا عَادٖ فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ١٤٥﴾[1].

ثم آية النحل: ﴿فَكُلُواْ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ حَلَٰلٗا طَيِّبٗا وَٱشۡكُرُواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ إِن كُنتُمۡ إِيَّاهُ تَعۡبُدُونَ ١١٤ إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡمَيۡتَةَ وَٱلدَّمَ وَلَحۡمَ ٱلۡخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ لِغَيۡرِ ٱللَّهِ بِهِۦۖ فَمَنِ ٱضۡطُرَّ غَيۡرَ بَاغٖ وَلَا عَادٖ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ١١٥﴾[2].

ثم آية البقرة: ﴿إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡمَيۡتَةَ وَٱلدَّمَ وَلَحۡمَ ٱلۡخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ بِهِۦ لِغَيۡرِ ٱللَّهِۖ فَمَنِ ٱضۡطُرَّ غَيۡرَ بَاغٖ وَلَا عَادٖ فَلَآ إِثۡمَ عَلَيۡهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ١٧٣﴾[3].

ثم آية المائدة: ﴿حُرِّمَتۡ عَلَيۡكُمُ ٱلۡمَيۡتَةُ وَٱلدَّمُ وَلَحۡمُ ٱلۡخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ لِغَيۡرِ ٱللَّهِ بِهِۦ وَٱلۡمُنۡخَنِقَةُ وَٱلۡمَوۡقُوذَةُ وَٱلۡمُتَرَدِّيَةُ وَٱلنَّطِيحَةُ وَمَآ أَكَلَ ٱلسَّبُعُ إِلَّا مَا ذَكَّيۡتُمۡ وَمَا ذُبِحَ عَلَى ٱلنُّصُبِ وَأَن تَسۡتَقۡسِمُواْ بِٱلۡأَزۡلَٰمِۚ ذَٰلِكُمۡ فِسۡقٌۗ ٱلۡيَوۡمَ يَئِسَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن دِينِكُمۡ فَلَا تَخۡشَوۡهُمۡ وَٱخۡشَوۡنِۚ ٱلۡيَوۡمَ أَكۡمَلۡتُ لَكُمۡ دِينَكُمۡ وَأَتۡمَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ نِعۡمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلۡإِسۡلَٰمَ دِينٗاۚ فَمَنِ ٱضۡطُرَّ فِي مَخۡمَصَةٍ غَيۡرَ مُتَجَانِفٖ لِّإِثۡمٖ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ٣﴾[4].

٢. **أول ما نزل من الأشربة:** أول آية نزلت في الخمر آية البقرة: ﴿۞يَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلۡخَمۡرِ وَٱلۡمَيۡسِرِۖ قُلۡ فِيهِمَآ إِثۡمٞ كَبِيرٞ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ وَإِثۡمُهُمَآ أَكۡبَرُ مِن نَّفۡعِهِمَاۗ﴾[5].

---

[1] سورة الأنعام: آية (١٤٥).

[2] سورة النحل: آية (١١٤-١١٥).

[3] سورة البقرة: آية (١٧٣).

[4] سورة المائدة: آية (٣).

[5] سورة البقرة: آية (٢١٩).

ثم آية النساء: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَقۡرَبُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنتُمۡ سُكَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَعۡلَمُواْ مَا تَقُولُونَ﴾[1].

ثم آية المائدة: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلۡخَمۡرُ وَٱلۡمَيۡسِرُ وَٱلۡأَنصَابُ وَٱلۡأَزۡلَٰمُ رِجۡسٞ مِّنۡ عَمَلِ ٱلشَّيۡطَٰنِ فَٱجۡتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ٩٠ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱلشَّيۡطَٰنُ أَن يُوقِعَ بَيۡنَكُمُ ٱلۡعَدَٰوَةَ وَٱلۡبَغۡضَآءَ فِي ٱلۡخَمۡرِ وَٱلۡمَيۡسِرِ وَيَصُدَّكُمۡ عَن ذِكۡرِ ٱللَّهِ وَعَنِ ٱلصَّلَوٰةِۖ فَهَلۡ أَنتُم مُّنتَهُونَ ٩١﴾[2].

عن ابن عمر قال: "نزل في الخمر ثلاث آيات، فأول شيء ﴿۞يَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلۡخَمۡرِ وَٱلۡمَيۡسِرِۖ﴾، فقيل حرمت الخمر، فقالوا يا رسول الله: دعنا ننتفع بها كما قال الله، فسكت عنهم، ثم نزلت الآية ﴿لَا تَقۡرَبُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنتُمۡ سُكَٰرَىٰ﴾ فقيل حرمت الخمر، فقالوا يا رسول الله ألا نشربها قرب الصلاة، فسكت عنهم ثم نزلت ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلۡخَمۡرُ وَٱلۡمَيۡسِرُ﴾ فقال رسول الله (ﷺ): حرمت الخمر"[3]

٣. **أول ما نزل في القتال:** عن ابن عباس قال: أول آية نزلت في القتال ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَٰتَلُونَ بِأَنَّهُمۡ ظُلِمُواْۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصۡرِهِمۡ لَقَدِيرٌ ٣٩﴾.[4]

---

[1] سورة النساء: آية (٤٣).

[2] سورة المائدة: آية (٩٠-٩١).

[3] رواه الطبراني في مسنده.

[4] سورة الحج: آية (٣٩)، ورواه الحاكم في المستدرك.

ولمعرفة أول ما نزل وآخر ما نزل فوائد أهمها:

أ. بيان العناية التي حظي بها القرآن الكريم صيانة له، وضبطاً لآياته:

فقد وعي الصحابة هذا الكتاب آية آية، فعرفوا متي نزلت؟ وأين نزلت؟ حيث كانوا يتلقون عن رسول الله (ﷺ) ما يتنزل عليه من القرآن تلقي المؤمنين لأصول دينهم، ومبعث إيمانهم، ومصدر عزهم ومجدهم، وكان من أثر ذلك سلامة القرآن من التغيير والتبديل ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ۝٩﴾[1].

ب. إدراك أسرار التشريع الإسلامي في تاريخ مصدره الأصيل:

فإن آيات القرآن الكريم عالجت النفس البشرية بهداية السماء، وأخذت الناس بالأسباب الحكيمة التي ترقي بنفوسهم في سلم الكمال، وتدرج بهم في الأحكام التي يستقيم بها منهج حياتهم على الحق، وتنتظم شئون مجتمعهم على الطريق الأقوم.

ت. تمييز الناسخ والمنسوخ:

فقد ترد الآيتان أو الآيات في موضوع واحد، ويختلف الحكم في إحداها عن الأخرى، فإذا عرف ما نزل أولاً، وما نزل آخراً، كان حكم ما نزل آخراً ناسخاً لحكم ما نزل أولاً.

[1] سورة الحجر: آية (٩).

الفصل الرابع: جمع القرآن وترتيبه

تمهيد:

سنتحدث في هذا الفصل عن كتابة القرآن في عهد النبي (ﷺ)، ثم عن جمعه في صحف أيام أبي بكر، ثم عن نسخه في مصاحف أيام عثمان، وسنتحدث أيضاً عن ترتيب آيات القرآن وسوره، ولماذا لم يجمع القرآن في مصحف واحد في عهد الرسول (ﷺ).

المبحث الأول: كتابة القرآن في عهد النبي (ﷺ)

كان رسول الله (ﷺ) أمياً لا يقرأ ولا يكتب، وقد وصفه القرآن الكريم بأنه أمي، فقال (ﷻ): ﴿فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِ ٱلنَّبِيِّ ٱلْأُمِّيِّ﴾[١]. وكان (ﷺ) حريصاً على حفظ ما ينزل عليه حرصاً جعله يتسابق الملك ويعجل بتلاوة ما أنزل عليه قبل أن يفرغ، ويحرك به لسانه وشفتيه[٢]. حتى نزل قوله تعالي: ﴿إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ ۝١٧ فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ ۝١٨ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُۥ ۝١٩﴾[٣]، وجاء في "صحيح البخاري" عن ابن عباس: (إن علينا أن نبينه بلسانك، قال: وكان إذا أتاه جبريل أطرق فإذا ذهب قرأه كما وعده الله).[٤]

وكان (ﷺ) يخشي أن ينسي شيئاً منه حتى تعهد الله له بعدم نسيان شيء منه ذلك بقوله سبحانه: ﴿سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنسَىٰٓ ۝٦﴾[٥]. أي لا تتعب نفسك ولا تعجل بالقراءة إنك لا تنسي.[٦]

---

[١] سورة الأعراف: آية (١٥٨).

[٢] رواه البخاري ٦/١٦٠، والترمذي ٤/٢٠٩ من (تحفة الأحوذي).

[٣] سورة القيامة: آية (١٧-١٩).

[٤] رواه البخاري ٦/١٦٠، والترمذي ٤/٢٠٩ من (تحفة الأحوذي).

[٥] سورة الأعلى: آية (٦).

[٦] انظر: "تفسير الجلالين" سورة الأعلى.

وكان (ﷺ) إذا ما انتهي الوحي، تلا الآيات التي أنزلت وأمر كتبه الوحي بكتابتها بين يديه فيكتبونها، وكانوا يكتبون على الرقاع والعسب واللخاف والعظام.[1]

وكتاب الوحي عديدون أحصى أسمائهم عدد من العلماء، وكان من أكثرهم استيعاباً الحافظ العراقي، إذ ذكر اثنين وأربعين كتاباً لرسول الله (ﷺ)[2] وعدهم البرهان الحلبي في (حواشي الشفا) فأوصلهم إلى ثلاثة وأربعين[3]. ومن أشهرهم الخلفاء الأربعة، ومعاوية بن أبي سفيان، وزيد بن ثابت، وأبي بن كعب، وليس من شك في أن كتبة الوحي في مكة كانوا أقل عدداً من كتبة الوحي في المدينة، كما كانت مهمة الكتابة ذاتها لم تأخذ طابعها الرسمي الذي أخذته في المدينة. ومهما يكن من أمر فمن المقطوع به أن الكتابة بدأت مع تنزل الوحي، وأن الصحابة كانوا يكتبون الآيات القرآنية في رقاع ومخطوطات شخصية لاستعمالهم، وإننا لنقرأ في السيرة أن إسلام عمر كان بسبب قراءته آيات وجدها مكتوبة عند أخته.[4]

إن عدد كتبة الوحي قليل بالنسبة إلى جماهير المسلمين القراء الذين كانوا يحفظون القرآن بعد أن يتلقوه مشافهة من الرسول (ﷺ)، والذين كانوا يرددون آياته آناء الليل وأطراف النهار، فنحن نقرأ في أخبارهم أن القرآن ملأ حياتهم كلها، فإذا أووا إلى المسجد كانت تلاوة القرآن ديدنهم، وإذا سحب الليل بثيابه السود على الأرض قاموا في هدوء الليل يتهجدون بالقرآن تسمع لهم دوياً به وحنيناً.

---

(1) الرقاع: تكون من الجلد والرق والكاغد. والعسب: الأطراف العريضة من جريد النخل كانوا يكشفون الخوص ويكتبون في الطرف العريض. واللخاف: صفائح الحجارة وهي جمع لخفة. والعظام: معروفة وأشهرها الأكتاف كما جاء في رواية أخري.

(2) "التراتيب الإدارية" – للكتاني ١/١١٦.

(3) "التراتيب الإدارية" – للكتاني ١/١١٧، وانظر في كتاب الوحي "تاريخ دمشق" لابن عساكر و"تفسير القرطبي" ١٣/٣٥٣، و"عنوان البيان في علوم التبيان" لمحمد حسنين مخلوف.

(4) "مدخل إلى القرآن الكريم" – لمحمد عبد الله دراز– ص٣٤–٣٥.

إن من المؤكد المقطوع به أن القرآن كُتب كله في عهد رسول الله (ﷺ)، ولكنه لم يكن مجموعاً في موضع واحد. قال زيد بن ثابت عن القرآن: (وقبض النبي (ﷺ) ولم يكن جمع في شيء)[1]، وذلك لما نعلم من أن سور القرآن كان معظمها مفتوحاً ومعرضاً لأن تنزل آيات توضع في بعضها، إذ ثبت كما مر أن الرسول (ﷺ) كان يأمر الكتبة أن: "ضعوا الآية بعد آية كذا، من السورة التي يذكر فيها كذا وكذا"[2]، ولما كان يتوقع من ورود ناسخ لبعض أحكامه أو تلاوته.

فلما انقضى نزوله بوفاته ألهم الله الخلفاء الراشدين ذلك وفاء بوعده الصادق بضمان حفظه على هذه الأمة[3].

لماذا لم يجمع القرآن في مصحف واحد في زمن النبي (ﷺ)؟

والجواب علي ذلك:

أولاً: إن القرآن لم ينزل مرة واحدة، وإنما نزل مفرقاً، ولا يمكن جمعه قبل أن يتكامل النزول.

ثانياً: إنّ بعض الآيات كانت تنسخ، وإذا كان القرآن عُرْضةً للنسخ، فكيف يمكن أن تجمع في مصحف واحد.

ثالثاً: إنّ ترتيب الآيات والسّور لم يكن على حسب النزول، فقد تنزل بعض الآيات في أواخر الوحي، بينما يكون ترتيبها في أوائل السور الكريمة، وهذا يقتضي تغيير المكتوب.

---

(١) "الإتقان" ١/٥٧.

(٢) انظر: مقدمة تفسير سورة التوبة، في "ظلال القرآن".

(٣) هذا قول الخطابي. وانظره في "الإتقان" ١/٥٧.

رابعاً: كانت المدة بين نزول آخر ما نزل وبين وفاته (ﷺ) قصيرة جداً، وقد تقدم أن آخر ما نزل من القرآن قوله تعالي: ﴿وَٱتَّقُواْ يَوۡمٗا تُرۡجَعُونَ فِيهِ إِلَى ٱللَّهِ﴾[1]. وقد انتقل رسول الله إلى جوار ربه بعد نزولها بتسع ليال، فالمدة إذاً قصيرة، ولا يمكن جمعه قبل تكامل النزول.

خامساً: لم يوجد من دواعي الجمع في مصحف واحد مثل ما وجد في عهد أبي بكر، فقد كان المسلمون بخير، والقرّاء كثيرون، والفتنة مأمونة، بخلاف ما حصل في عهد أبي بكر من مقتل الحفاظ حتى خاف على ضياع القرآن.

والخلاصة: إن القرآن لو جمع في مصحف واحد والحال على ما ذكرنا لكان القرآن عرضة للتغيير والتبديل كلما وقع نسخ، أو حدث سبب، مع أن أدوات الكتابة لم تكن ميسورة، والظروف لا تساعد على ترك المصحف القديم، والاعتماد على المصحف الجديد، لأنه لا يمكن أن يكون في كل شهر أو يوم مصحف يجمع كل ما نزل من القرآن ولكن لما استقر الأمر بختام التنزيل، ووفاة الرسول، وأمن النسخ، وعرف الترتيب أمكن جمعه في مصحف واحد، وهذا ما فعله الخليفة الراشد أبو بكر الصديق (رضي الله عنه)، وجزاه عن القرآن والمسلمين خير الجزاء.

[1] سورة البقرة: آية (٢٨١).

المبحث الثاني: كتابة القرآن في عهد أبي بكر (ﷺ)

كان جمع القرآن في موضع واحد في عهد ابي بكر الصديق (ﷺ)، وذلك بعد معركة اليمامة التي كانت سنة ١٢هـ، وقد قتل فيها كثيرون كان عدد كبير منهم من القراء (قال زيد بن طلحة: قتل يوم اليمامة من قريش سبعون، ومن الأنصار سبعون، ومن سائر العرب خمسمائة)[١] وفي البخاري عن قتادة قال: (ما نعلم حياً من أحياء العرب اكثر شهيداً وأعز يوم القيامة من الأنصار) قال قتادة: (حدثا أنس أنه قتل منهم يوم أحد سبعون، ويوم بئر معونة سبعون ويوم اليمامة سبعون).[٢]

ويروي لنا قصة جمع القرآن زيد بن ثابت فيقول: (أرسل إليَّ أبو بكر بعد مقتل أهل اليمامة، فإذا عمر عنده، فقال أبو بكر: إن عمر أتاني فقال: إن القتل استحر[٣] يوم اليمامة بقراء القرآن وإني أخشي أن يستحرَّ القتل بالقراء في الوطن، فيذهب كثير من القرآن). فقلت لعمر: كيف نفعل شيئاً لم يفعله رسول الله (ﷺ)؟. قال عمر: هو والله خير. فلم يزل يراجعني حتى شرح الله صدري لذلك. قال أبو بكر يخاطب زيداً: إنك شاب عاقل ى نتهمك، وقد كنت تكتب الوحي لرسول الله (ﷺ) فتتبع القرآن فاجمعه، فوالله لو كلفوني نقل جبل من الجبال ما كان أثقل عليَّ مما أمرني به من جمع القرآن. قلت: كيف تفعلون شيئاً لم يفعله رسول الله (ﷺ)؟ قال: هو والله خير. فلم يزل يراجعني حتى شرح الله صدري للذي شرح الله له صدر أبي بكر وعمر. قال زيد: فتتبعت القرآن أجمعه من العسب واللخاف وصدور

---

[١] "مختصر السيرة" – لعبد الله بن محمد بن عبد الوهاب – ص٤٧٥.

[٢] انظر "البداية والنهاية" – لابن كثير – ج٦، ص٣٢٣.

[٣] أي اشتد.

الرجال ... وكانت الصحف عند أبي بكر حتى توفاه الله، ثم عند عمر حياته، ثم عند حفصة بنت عمر[١].

وفي كلام أبي بكر (ﷺ) ذكره للدوافع التي حملته على ترشيح زيد لهذا العمل. وقد ذكرها ابن حجر في "الفتح" فقال: (ذكر له أربع صفات مقتضية خصوصيته بذلك):

١. كونه شاباً، فيكون أنشط لما يطلب منه.

٢. وكونه عاقلاً، فيكون أوعي له.

٣. وكونه لا يتهم، فتركن النفس إليه.

٤. وكونه كان يكتب الوحي، فيكون أكثر ممارسة له.

وهذه الصفات التي أجتمعت له قد توجد في غيره لكن مفرقة[٢] وتدل الروايات العديدة أن عمر بن الخطاب ساعد زيداً مساعدة تامة في هذا الموضوع، ولا عجب في ذلك، فإنه صاحب الفكرة وهو الذي اقترحها علي أبي بكر رضي الله عنهما. جاء في "كتاب المصاحف"[٣] لابن أبي داود أنّ أبا بكر قال لعمر وزيد: اقعد على باب المسجد، فمن جاءكما بشاهدين على شيء من كتاب الله فاكتباه[٤].

---

[١] الحديث رواه البخاري في "صحيحه" ٦/١٥٠ وقد نقله السيوطي في "الإتقان" عنه ١/٥٧، وأنظر: أيضاً في "جامع الأصول" ٣/٥٣. وذكر الأستاذ الدكتور محمد عبد الله دراز رحمه الله في كتابه "مدخل إلى القرآن الكريم" ص٣٦ هذه الرواية وعلق عليها قائلاً: (بعد أن أورد لوبلوا **LEBLOIS** هذه الرواية أردف قائلاً: من ذا الذي لم يتمن لو أن أحداً من تلاميذ عيسي الذين عاصروه قام بتدوين تعاليمه بعد وفاته مباشرة) قال ذلك في كتابه "القرآن والتوراة العبرية" ص٤٧، مذكرة ٥.

[٢] "فتح الباري" ٩/١٣.

[٣] كتاب "المصاحف" ص٦.

[٤] قال ابن حجر في "فتح الباري" ٩/١٥: ورجاله ثقات مع انقطاعه.

وقد فسره الشيخ علم الدين أبو الحسن علي بن محمد بن عبد الصمد السخاوي المتوفي سنة ٦٤٣هـ في كتابه "جمال القراء وكمال الإقراء" بأن المراد أنهما يشهدان على أن ذلك المكتوب كتب بين يدي رسول الله (ﷺ).

وكان غرضهم –على ما يقول أبو شامة– أن لا يكتب إلا من عين ما كتب بين يدي النبي (ﷺ) لا من مجرد الحفظ.[١]

ويدل هذا على زيادة في التحري، ومبالغة في الاحتياط، فزيد حافظ للقرآن وقد أوتي حظاً كبيراً من المعرفة بكتاب الله، ومع ذلك فلم يكن يكتفي لأن يوافق حفظ غيره حفظه، بل كان يطلب مع ذلك شيئاً مكتوباً، ويطلب من يشهد له على أن هذه الكتابة كانت بين يدي النبي (ﷺ) أي لم يكن يكتفي بمجرد وجدانه مكتوباً حتى يشهد به من تلقاه سماعاً.[٢]

قال الليث بن سعد: "أول من جمع القرآن أبو بكر، وكتبه زيد. وكان الناس يأتون زيد بن ثابت، فكان لا يكتب آية إلا بشاهدي عدل"[٣] ونقل السيوطي عن كتاب "المصاحف" أن عمر قال: من كان تلقي من رسول الله (ﷺ) شيئاً من القرآن فليأت به وكانوا يكتبون ذلك في الصحف والألواح والعسب، وكان لا يقبل من أحد شيئاً حتى يشهد شهيدان وهذا يدل على أنَّ زيداً كان لا يكتفي بمجرد وجدانه مكتوباً حتى يشهد به من تلقاه سماعاً مع كون زيد كان يحفظ القرآن، فكان يفعل ذلك مبالغة في الاحتياط.[٤]

---

[١] "الإتقان" ١/٥٨.

[٢] انظر "المصاحف" لابن أبي داود من ٥ وقد نقل ذلك عنه السيوطي في "الإتقان" ١/٥٧.

[٣] "الإتقان" ١/٥٨.

[٤] "نفس المصدر" ١/٥٨.

ونقل ابن حجر في "فتح الباري"[١] عن كتاب "المصاحف"[٢] ثناء علي بن أبي طالب على صنيع أبي بكر رضي الله عنهما فقال: (ويؤيده ما أخرجه ابن أبي داود في "المصاحف" بإسناد حسن عن عبد خير قال: سمعت علياً يقول: أعظم الناس أجراً أبو بكر. رحمه الله على أبي بكر، وهو أول من جمع كتاب الله).

إذن فقد تولي أمر الجمع أحد كتاب الوحي الثقات العارفين، وهو زيد بن ثابت الأنصاري، الذي كان من أكثر[٣] الناس حفظاً للقرآن، وكان يساعده في ذلك عمر بن الخطاب (ﷺ)، وكانت خطتها التوثيق من نقل ما كتب بين يدي النبي (ﷺ) مما يحافظانه، وأن يشهد الثقات العدول بأن الكتابة كانت على مرأى من الرسول (ﷺ).

وكانت الكتابة على قراطيس وصحف كما جاء في "الإتقان"[٤] (عن ابن عمر قال: جمع أبو بكر القرآن في قراطيس). وجمعت هذه الصحف في مكان واحد بعد أن كانت على عسب ولخاف ورقاع وأكتاف في أمكنة متعددة. وقد بذل زيد جهوداً ضخمة إذ أنه استطاع إنجاز ذلك في سنة وفي خلافة أبي بكر (ﷺ).

ويظهر أنه كان إلى جانب هذا العمل الرسمي الذى تولته الدولة محاولات فردية من قبل بعض الصحابة، فقد جمع القرآن في صحف الصحابي الجليل أُبيّ بن كعب، وكذلك فعل المقداد بن عمرو، وعبد الله بن مسعود، وأبو موسي الأشعري.

فقرأ أهل دمشق على نسخة أُبي، وأهل حمص على نسخة المقداد، وأهل الكوفة والبصرة على نسختي عبد الله بن مسعود وأبي موسي الأشعري.

---

[١] "فتح الباري" ١٢/٩.

[٢] انظر "كتاب المصاحف" ص٥.

[٣] "الإتقان" ٥٩/١.

[٤]

وبعد أن أنتهي زيد من عملية الجمع، سلَّم ما جمعه إلى الخليفة أبي بكر الذي أحتفظ به إلى أن توفي فالت هذه الصحف إلى الخليفة عمر؛ لأن أبا بكر عهد بها إليه؛ لأنه المرشح للخلافة، ثم قام عمر بتسليمها إلى ابنته حفصه أم المؤمنين في آخر حياته؛ لأن الخليفة الثالث لم يكن قد بويع في ذلك الوقت.[1]

مزايا مصحف أبي بكر الصديق:

امتازت الصحف التي جمعت في عهد أبي بكر الصديق في (مصحف واحد) بعدة مزايا أهمها:

أولاً: التحرّي الدقيق التام، والتثبت الكامل.

ثانياً: لم يُسجّل في المصحف إلى ما ثبت عدم نسخ تلاوته.

ثالثاً: إجماع الأمة عليه، وتواتر ما سجل فيه من الآيات القرآنية.

رابعاً: شمول المصحف للقراءات السبع التي نقلت بالنقل الثابت الصحيح.

[1] "المدخل إلى القرآن الكريم"، ص٣٧.

المبحث الثالث: نسخ المصاحف في عهد عثمان بن عفان (رضي الله عنه)

المصحف: مأخوذ من أصحف، أي جعلت فيه الصحف المكتوبة بين دفتين جمعت فيه.[١]

وهناك خبر "في كتاب المصاحف" لابن أشته، ذكر السيوطي في "الإتقان"[٢] يدل على أن هذه الكلمة كانت قبل زمن عثمان. وهو: عن أبي بريدة قال: أول من جمع القرآن في مصحف سالم مولى حذيفة، أقسم لا يرتدي برداء حتى يجمعه، فجمعه، ثم ائتمروا ما يسمونه فقال بعضهم: سموه السفر قال: ذلك تسمية اليهود، فكرهوه. فقال: رأيت مثله بالحبشة يسمي: المصحف، فاجتمع رأيهم على أن يسموه المصحف. وقال السيوطي تعليقاً على هذا الخبر: إسناده منقطع.

سبب نسخ المصاحف وطريقة النسخ:

يبدو أن خلافاً وقع بين المسلمين في قراءتهم للقرآن ومرده إلى أمرين:

١. اختلاف الحروف واللهجات والروايات.

٢. اختلاف ما بين أيديهم من الصحف التي جمعها ناس من الصحابة أشرنا إلى بعضهم في المبحث السابق.

يدل على ذلك ما رواه البخاري عن أنس قال: (قدم حذيفة بن اليمان على عثمان – وكان يغازي أهل الشام في فتح أرمينية وأذربيجان مع أهل العراق فأفزع حذيفة اختلافهم في القراءة– فقال لعثمان: أدرك الأمة قبل أن يختلفوا اختلاف اليهود والنصاري. فأرسل إلى حفصة أن أرسلي إلينا الصحف ننسخها في المصاحف، ثم نردها إليك، فأرسلت بها حفصة

---

[١] انظر: "مختار الصحاح" و"القاموس" و "تاج العروس" و "لسان العرب" – مادة (ص ح ف).

[٢] انظر: "الإتقان" ٥٨/١.

إلى عثمان فأمر زيد بن ثابت[١] وعبد الله ابن الزبير[٢] وسعيد بن العاص[٣] وعبد الرحمن بن الحارث بن هشام[٤] فنسخوها في المصاحف، وقال عثمان للرهط القرشيين الثلاثة: إذا اختلفتم أنتم وزيد بن ثابت في شيء من القرآن فاكتبوه بلسان قريش، فإنه إنما نزل بلسانهم، ففعلوا، حتى إذا نسخوا الصحف في المصاحف ردَّها عثمان إلى حفصة، وأرسل إلى كل أفق بمصحف مما نسخوا وأمر بما سواه من القرآن المكتوب في كل صحيفة أو مصحف أن يحرق.[٥]

وجاء في "الإتقان" نقلاً عن ابن أشته أن أنس بن مالك قال:

اختلفوا في القران على عهد عثمان حتى اقتتل الغلمان والمعلمون[٦] أي لم يقتصر الأمر على الجن كما في حديث البخاري السابق بل جاوز ذلك إلى المعلمين والغلمان وذكر ابن كثير أنه (اجتمع خلق من أهل الشام ممن يقرأ على قراءة المقداد بن الأسود وأبي الدرداء، وجماعة من أهل العراق ممن يقرأ على قراءة عبد الله ابن مسعود وأبي موسى وجعل من لا يعلم يسوغان القراءة على سبعة أحرف يفضل قراءته على قراءة غيره، وربما خطّأ الآخر أو كَفّرّه فأدي ذلك إلى اختلاف شديد، وانتشار الكلام السيئ بين الناس[٧]).

فكان عمل عثمان (ﷺ) جمعاً للناس على مصحف واحد، ودرءاً لفتنة ومفسدة. أما الصحف التي اعتمدتها اللجنة الرباعية فقد أعادها عثمان إلى حفصة بعد الانتهاء من

---

[١] هو زيد بن ثابت الأنصاري، ولد سنة ١١هـ، وتوفي سنة ٤٥هـ.

[٢] هو عبد الله بن الزبير الأسدي القرشي، ولد سنة ١هـ، وقتل سنة ٧٣هـ.

[٣] هو سعيد بن العاص الأموي القرشي، ولد سنة ٣ هـ، وتوفي سنة ٥٩هـ.

[٤] هو عبد الرحمن بن الحارث بن هشام المخزومي القرشي، ولد سنة ١هـ، وتوفي سنة ٤٣هـ.

[٥] "صحيح البخاري" ١٥١/٦.

[٦] "الإتقان" ٦١/١.

[٧] "البداية والنهاية" ٢١٧/٧.

النسخ، وبقيت عندها حتى وفاتها. جاء في "المصاحف" لابن أبي داود ما يأتي: (حاول مروان ابن الحكم أن يأخذها منها ليحرقها، فأبت، حتى إذا توفيت أخذ مروان الصحف وأحرقها، وقال: إنما فعلت هذا لأن ما فيها قد كتب وحفظ بالمصحف الإمام، فخشيت إن طال بالناس زمان أن يرتاب في شأن هذه الصحف مرتاب[١]).

ذكر السيوطي نقلا عن كتاب ابن أشته أنهم عندما اجتمعوا للكتابة كان عملهم إنهم إذا اختلفوا وتدارؤوا في أي آية قالوا: هذه أقرأها رسول الله (ﷺ) فلاناً، فيرسل إليه وهو على رأس ثلاث من المدينة. فيقال له: كيف أقرأك رسول الله (ﷺ) آية كذا وكذا؟ فيقول: كذا وكذا فيكتبونها[٢]. ويبدوا أنه قد أتبع في هذا الجمع الأول أيام أبي بكر من البحث عن الآيات مكتوبة في عصر النبي (ﷺ) وأن يشهد اثنان بكتابتها في عصره.[٣]

ولقد بذلت هذه اللجنة الرباعية قصارى جهودها في سبيل إتقان العمل وتحرى الصواب فيه حتى كان عملها كاملاً تاماً. قال ابن حجر: وكان ذلك في حدود سنة ٣٠هـ، ولم يذكر له مستند[٤].

ونستطيع أن تقرر الأمور التالية عن عمل عثمان (رضي الله عنه):

١. اختيرت اللجنة اختياراً موفقاً من الأنصار والمهاجرين، وكان نصيب قريش فيها كبيراً، لأن القرآن نزل بلغة قريش كما قال عثمان. وأفرادها من الصلاح والحفظ والمعرفة بمكان كبير، ومع ذلك فقد كانت لا تدخر وسعاً في السؤال والبحث

---

[١] "المصاحف" ص٢٤.

[٢] "الاتقان" ٥٩/١.

[٣] المعجزة الكبرى القران– "لمحمد أبو زهرة" – ص٣٣، وانظر: "تفسير القرطبي"، ٥١/١.

[٤] "الاتقان" ٥٩/١.

والتثبت ما استطاعت إلى ذلك سبيلا، وكان أفرادها يحفظون القرآن في صدورهم.

ولابد من التنبيه إلى أحد أعضائها، وهو "زيد بن ثابت" الذي قام بالجمع في المرة الأولي أيام أبي بكر الصديق.

٢. جردت المصاحف مما ليس قرآناً كالشروح والتفاسير التي كانت يثبتها بعض الصحابة على مصاحفهم.

٣. اعتمدت اللجنة على صحف أبي بكر (ﷺ) اعتماداً رئيسياً، حيث جعلتها الأصل، ثم استعملت كل ما أمكنها من وسائل التثبت والأستيثاق.

٤. كتب القرآن بشكل يجمع القراءات التي نزل بها القرآن، وقد ساعد على ذلك عدم التشكيل وعدم التنقيط.

٥. استطاعت هذه اللجنة أن تنجح في عملها خير نجاح، فلقد حسمت هذه المصاحف الخلاف، وحالت دون فرقة المسلمين حول كتاب الله الخالد الكريم.

قال ابن تيمية يلخص عملية جمع القرآن: (.. فلما كان العام الذي قبض فيه، عارضه جبريل به (أي بالقرآن) مرتين، والعرضة الأخيرة هي قراءة زيد بن ثابت وغيره، وهي التي أمر الخلفاء الراشدون أبو بكر وعمر وعثمان وعلي بكتابتها في المصاحف، وإرسالها إلى الأمصار باتفاق من الصحابة[١].

[١] "مجموع الفتاوى" لابن تيمية – ١٣/٣٩٥.

عدد المصاحف العثمانية:

- المشهور أنها خمسة مصاحف، أرسل بها عثمان (ﷺ) إلى الآفاق الخمسة وهي: مكة، والشام، والبصرة، والكوفة، واحتفظ بواحد منها لأهل المدينة.
- وهناك قول آخر أنها سبعة، ولكن هناك خبران في أسماء البلاد التي أرسلت إليها، **فالأول:** أورده ابن كثير في "البداية والنهاية"[1] فحواه أن عثمان (ﷺ) كتب سبعة مصاحف: أرسل إلى مكة مصحفاً، وإلى أهل مصر آخر، وبعث إلى البصرة مصحفاً، وإلى الكوفة بآخر، وأرسل إلى الشام مصحفاً، وإلى اليمن مثله، وأقر بالمدينة مصحفاً.

وأورد الثاني ابن أبي داود في "المصاحف"[2]، وذكره السيوطي في "الإتقان"[3]، فحواه أن عثمان (ﷺ) وجه بسبعة مصاحف، هذه الخمسة المشهورة (أي لمكة والمدينة والشام والبصرة والكوفة)، وأرسل مصحفاً إلى اليمن، ومصحف إلى البحرين. قال السيوطي: ولكن لم يسمع لهذين المصحفين خبر.

والفرق بين الخبرين هو المصحف السابع، أرسل إلى مصر أم إلى البحرين؟

- ولم يكتف عثمان (ﷺ) بتوجيه هذه المصاحف إلى هذه البلاد، وإنما اختار حفاظاً يثق بهم وأنفذهم إلى الاقطار الإسلامية التي أرسل إليها المصاحف، ليقرئوا أهل البلد المرسل إليهم، فأرسل مع كل مصحف قارئاً، متقناً يقوم بمهنة التعليم والإقراء.[4]

---

[1] "البداية والنهاية" – ٢١٧/٧.

[2] "المصاحف" – ص٢٤.

[3] "الإتقان" – ٨١/١.

[4] "مناهل العرفان" – ٣٩٦/١.

- ويقال لهذه المصاحف الأئمة، وليست مكتوبة بخط عثمان، وإنما يقال لها المصاحف العثمانية نسبة إلى أمره وزمانه وإمارته.[١]

رأي الصحابة في صنيع عثمان:

كان جمع الناس على مصحف واحد من مناقب عثمان الجليلة، وحسناته العظيمة، وقد ذكر ابن كثير ان حذيفة بن اليمان عندما جاء عثمان واخبره بما أخبره مما أشرنا إليه آنفا قال: "فعند ذلك جمع عثمان الصحابة، وشاورهم في ذلك، ورأى أن يكتب المصحف على حرف واحد، وان يجمع الناس في سائر الأقاليم على القراءة به دون سواه".[٢]

وذكر ابن أبي داود عن علي (ﷺ) عنه أنه قال؛ لا تقولوا في عثمان إلا خيراً، فوالله ما فعل الذي فعل في المصاحف إلا عن ملأ منا. قال عثان: ما تقولون في هذه القراءة، فقد بلغني أن بعضهم يقول؛ ان قراءتي خير من قراءتك، وهذا يكاد يكون كفراً؟ قلنا؛ فما ترى؟ قال: أرى أن يجمع الناس على مصحف واحد فلا تكون فرقة ولا اختلاف. قلنا: فنعم ما رأيت.[٣]

إذن فما كان صنيع عثمان إلا عن موافقة من الصحابة وبعد استشارتهم.

ونقل ابن كثير عن البيهقي وغيره انهم رووا عن علي (ﷺ) أنه قال: أيها الناس إياكم والغلو في عثمان تقولون: حرق المصاحف. والله ما حرقها إلا عن ملأ من أصحاب محمد (ﷺ) ولو وليت مثلما ولي لفعلت مثل الذي فعل[٤]) وروي الطبري عن علي قوله: (لا تسموا

---

(١) "البداية والنهاية" – ٢١٧/٧، وانظر: "فضائل القرآن" –لابن كثير– ص١٥، طبعة: عيسي البابي الحلبي الملحقة بالتفسير.

(٢) "البداية والنهاية" – ٢١٧/٧، وانظر: "فضائل القرآن" – ص١٥.

(٣) "المصاحف" – ص٢٢، ونقله عنه السيوطي في "الإتقان" – ٥٩/١.

(٤) "البداية والنهاية" ٢١٨/٧.

عثمان شقاق المصاحف، فو الله ما شقها إلا عن ملأ منا أصحاب محمد ولو وليتها لعملت مثل الذي عمل[١]).

الفرق بين جمع أبي بكر وعثمان رضى الله عنهما:

- كان جمع أبي بكر الصديق للقرآن خشية أن يذهب من القرآن شيء بذهاب حملته،لأنه لم يكن مجموعاً في موضع واحد، فجمعه – جزاه الله عن الإسلام خيراً– في صحف مرتباً لآيات سوره على ما وقفهم عليه النبي (ﷺ).
- وكان جمع عثمان حسماً لخلاف ذر قرنه في صفوف المسلمين، وجمعاً للمسلمين على نسخة موحدة من المصحف، ذلك أنه كثر اختلافهم في وجوه القراءة، فأدي ذلك بهم إلى أن يخطئ بعضهم بعضاً، فخشي من تفاقم الأمر في ذلك، فنسخ تلك الصحف في مصحف واحد، مرتباً لسوره الترتيب النهائي[٢] واقتصر من سائر اللغات على لغة قريش محتجاً بأنه نزل بلغتهم وأنه إن كان قد وسع في قراءته بلغة غيرهم في بادئ الأمر دفعاً للحرج والمشقة، فإن الحاجة إلى ذلك قد انتهت، فاقتصر على لغة قريش[٣] وكذلك فقد حذف عثمان من المصاحف كل الشروح والتأويلات وما نسخت تلاوته[٤].

والخلاصة: أن جمع أبي بكر سببه موت الحفاظ، وأما جمع عثمان فقد كان عبارة عن نسخ عدة لترسل إلى الآفاق الإسلامية، والسبب اختلاف القراء في قراءة القرآن.

---

[١] "تاريخ الطبري" ١١٤/٦.

[٢] "الإتقان" ٥٩/١.

[٣] "عنوان البيان في علوم التبيان" لمحمد حسنين مخلوف، ص٩٧.

[٤] "الإتقان" ٦٠/١.

المبحث الرابع: ترتيب آيات القرآن وسوره

١. أما ترتيب الآيات في السورة الواحدة فقد كان في عهد النبي (ﷺ) وبإشارة منه، وهذا مدلول زيد بن ثابت الذي رواه الحاكم بسند على شرط الشيخين قال: "كنا عند رسول الله نؤلف القرآن من الرقاع".[١]

قال البيهقي: شبيه أن يكون المراد به تأليف ما نزل من الآيات المتفرقة في سورها وجمعها فيه بإشارة النبي (ﷺ)، فقد جاء في حدث عثمان الذي أخرجه أحمد وأبو داود والترمذي والنسائي وابن حبان أنه قال: كان رسول الله (ﷺ) تنزل عليه السورة ذات العدد فكان إذا نزل عليه الشيء دعا بعض من كان يكتب فيقول: ضعوا هؤلاء الآيات في السورة التي يذكر فيها كذا وكذا.

ومن الأدلة علي أن ترتيب الآيات توقيفي حديث حذيفة الذي رواه مسلم في "صحيحه" قال: صليت مع النبي (ﷺ) ذات ليلة فافتتح البقرة، فقلت: يركع عند المائة، ثم مضى، فقلت: يصلي بها في ركعة، فمضى، ثم افتتح النساء فقرأها، ثم افتتح آل عمران فقراها ... وهناك إجماع على أنه توقيفي لا خلاف فيه بين المسلمين.

قال الباقلاني: (ترتيب الآيات أمر واجب وحكم لازم، فقد كان جبريل يقول: ضعوا آية كذا في موضع كذا)[٢] وقال أيضاً: (إن ترتيبه ونظمه ثابت على ما نظمه الله تعالي ورتبه عليه رسوله من آى السور، لم يقدم من ذلك مؤخر، ولا أخر منه مقدم، وان الأمة

---

[١] نؤلف: أي نجمع – وكان هذا التأليف عبارة عن (ترتيب الآيات).

[٢] "الإتقان" ٦١/١.

ضبطت عن النبي (ﷺ) ترتيب آيات كل سورة ومواضعها وعرفت مواقعها كما ضبطت عنه نفس القراءة وذات التلاوة).[1]

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية في هذا الصدد: (وأما تربب آيات السور فهو منزل منصوص عليه، فلم يكن لهم أن يقدموا آية على آية في الرسم كما قدموا سورة على سورة لأن ترتيب الآيات مأمور به نصاً وأما ترتيب السور فمفوض إلى اجتهادهم).[2]

لماذا لم ترتب الآيات حسب نزولها؟

١. شاءت إرادة الله أن يوحي إلى الرسول (ﷺ) بموضع الآية من السورة كما رأينا، وأن يجمع على غير ترتيب نزوله ليظل معجزة إلي أبد الآبدين. وفي ذلك يقول الأستاذ محمد المدني في كتابه المجتمع الإسلامي كما تصوره سورة النساء:(لو أنه جمع على حسب ترتيب نزوله لفهم بعض الناس أن آياته خاصة بحوادثها، أو أنه حلول وقتية للمشكلات التي كانت على عهد الرسول فحسب، والله تعالي يريد كتابه عاماً خالداً لا يختص بعصر دون عصر، ولا بقوم دون قوم. لذلك اقتضت الحمة بأن يرتب ترتيباً يحقق هذا العموم وهذا الخلود، ويبتعد عن الترتيب الزمني الذي نزل به لحكمة كانت مناسبة حين نزوله)[3].

٢. أما ترتيب السور فأمر مختلف فيه. فبعضهم يقول: إنه توقيفي. وبعضهم يري أنه اجتهاد الصحابة.

---

[1] "المصدر السابق" ٦١/١.

[2] "مجموع الفتاوي" (٣٩٦/١٣).

[3] نقلاً عن كتاب "القرآن والعلم الحديث" لعبد الرازق نوفل ص١٤.

قال الباقلاني: (يمكن أن يكون الرسول (ﷺ) رتب سوره، وأن يكون قد وكل ذلك إلي الأمة بعده، ولم يتولَّ ذلك بنفسه، وهذا الثاني أقرب)[١].

ويري شيخ الإسلام ابن تيمية أنق ترتيب السور لم يكن واجباً عليهم منصوصاً، بل كان مفوضاً إلى اجتهادهم، ولهذا ترتيب مصحف عبد الله على غير ترتيب مصحف زيد وكذلك مصحف غيره)[٢].

وقد نقل السيوطي في "الإتقان" أن جمهور العلماء على أن ترتيب السور اجتهادي من الصحابة[٣]. وأورد رأياً لابن حجر يقول فيه: ترتيب بعض السور أو معظمها لا يمتنع أن يكون توقيفياً، ثم ذكر أدلته على ذلك[٤].

ومهما يكن من أمر فالذي انعقد الإجماع عليه في الأجيال المتتالية التي جاءت من بعدهم حتى عصرنا هذا، وما رآه المسلمون حسناً فهو عند الله حسن ولذللك فإن ترتيب السور ترتيباً جديداً يراعي فيه النزول أمر مخالف للإجماع ولا يجوز، وهو غير ممكن، ذلك لأن هناك سوراً نزل آخرها قبل أولها واستغرق نزولها مدة من الزمن.

أما ترتيب آيات السورة ترتيباً جديداً فالأمر فيه أشد وهو محظور بإجماع المسلمين، بل قد حكم بعض العلماء بكفر من يفعل ذلك، لأن ترتيب آيات السورة –كما رأيناه آنفاً– كان بأمر من النبي (ﷺ) بناء على أمر جبريل. والله أعلم.

---

[١] "الإتقان" ٦١/١.

[٢] "مجموع الفتاوي" ٣٩٦/١٣.

[٣] "الإتقان" ٦٢/١.

[٤] "المصدر السابق" ٦٣/١.

المبحث الخامس: سور القرآن وآياته

سور القرآن أقسام أربعة:

١. الطوال ٢. والمئين.

٣. والمثاني ٤. والمفصل. ونوجز أرجح الآراء فيها.

١. **فالطوال:** سبع: البقرة، وآل عمران، والنساء، والمائدة، والأنعام، والأعراف، والسابعة، قيل: هي الأنفال وبراءة معاً لعدم الفصل بينهما بالبسملة. وقيل! هي يونس.

٢. **والمئون:** التي تزيد آياتها على مائة أو تقاربها.

٣. **والمثاني:** هي التي تليها في عدد الآيات، سميت بذلك لأنها تثني في القراءة وتكرر أكثر من الطوال والمئين.

٤. **والمفصل:** قيل: من أول سورة "ق" وقيل: من أول "الحجرات وقيل: غير ذلك – وأقسامه ثلاثة– طواله، وأوساطه، وقصاره.

فطواله: من "ق" أو "الحجرات" إلى "عم" أو "البروج" وأوساطه: من "عم" أو "البروج" إلى "الضحي" أو إلى "لم يكن" وقصاره: من "الضحى" أو "لم يكن" إلى آخر القرآن. على خلاف في ذلك.

وتسميته بالمفصل لكثرة الفصل بين سوره بالبسملة.

وتعداد السور: مائة وأربع عشرة سورة، وقيل: وثلاث عشرة بجعل الأنفال وبراءة سورة واحدة.

أما تعداد الآيات: فستة آلاف ومائتان الآية، واختلفوا فيما زاد عن ذلك.

وأطول الآيات: آية الدين، **وأطول السور:** سورة البقرة.

وهذه التجزئة تسير على الناس الحفظ، وتحملهم على الدراسة، وتشعر القارئ لسورة من السور بأنه قد أخذ قسطاً وافياً وطائفة مستقلة من أصول دينه وأحكام شريعته.

الفصل الخامس: إعجاز القرآن الكريم

تمهيد:

قد جرت حكمة الله الأزلية، أن يؤيد أنبياؤه ورسله بالمعجزات الباهرات والدلائل الواضحات، والحجج والبراهين الدامغة التي يدل على صدقهم، وعلى أنهم أنبياء مرسلون من عند الله العزيز القدير، وقد خص الله تبارك وتعاني نبينا (ﷺ) بالمعجزة العظمى (القرآن الكريم) نلك النور الرباني، والوحي السماوي الذي ألقاه على قلب نبيه قرآنا عربياً غير ذي عوج، يتلوه آناء الليل وأطراف النهار، والذي أحيا به أجيالا من العدم، كانت في عداد الموتى فأحياها الله بنور هذا القرآن، وهداها أقوم طريق وانتشلها من الحضيض فجعلها خير أمة أخرجت للناس، وصدق الله حيث يقول: ﴿أَوَ مَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِى بِهِۦ فِى ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا ۚ كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْكَٰفِرِينَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٢٢﴾﴾.[1]

لقد أحيا القرآن أمماً، وأوجد مجتمعاً، وألف جيلاً لم يعرف له التاريخ مثيلاً، فأخرج من العرب الذين كانوا رعاة الإبل والغنم، سادة الشعوب والأمم، فملكهم الدنيا حتى حكموا أقاصي المعمورة وكل ذلك بفضل هذا القرآن، معجزة خاتم الأنبياء والمرسلين، وفي ذلك يقول أمير الشعراء:

(أخوك عيسى دعا ميتاً فقام له وأنت أحييت أجيالا من العدم)

ولئن كانت معجزة الأنبياء السابقين معجزات "حسية" تتناسب مع العصر والزمان الذي بعثوا فيه، كمعجزة (موسى) (عليه السلام) حيث كانت (اليد والعصا) لأنه بعث في زمن كثر فيه السحرة، واشتهر فيه السحر، وكذلك معجزة (عيسى) (عليه السلام) حيث كانت بإحياء الموتى،

[1] سورة الأنعام: آية (١٢٢).

وإبراء الأكمة[1] والأبرص، والإخبار عن بعض المغيبات، لأنه بعث في عصر كثر فيه الطب والحكمة، وظهر فيه الأطباء البارعون، فأتاهم عيسى بن مريم بما أدهشهم وأعجزهم من شفاء المرضى، وإحياء الموتى، وإبراء العمي والبكم الصم.

أقول: إذا كانت معجزات الأنبياء السابقين معجزات (مادية حسية) فإن معجزة محمد بن عبد الله معجزة (روحية عقلية) وقد خصه الله بالقرآن معجزة العقل الباقي على الزمان، ليراها ذوو القلوب والبصائر، فيستنيروا بضيائها وينتفعوا بهديها في المستقبل والحاضر، فقد ورد عن سيد المرسلين أنه قال: "ما من نبي من الأنبياء إلا أعطى من الآيات ما مثله آمن عليه البشر، وإنما كان الذي أوتيته وحيا أوحاه الله إليّ، فأرجو أن أكون أكثرهم تابعا" رواه البخاري.

أجل .. هذا الوحي السماوي الذي ألقاه الله على قلب نبيه الأمين ليكون ضياء ورحمة للعالمين، هو معجزة الاسلام الخالدة، وحجته الباقية، تقوم على فهم الدنيا شاهدة بصدق الرسول، ناطقة بعظمة الاسلام وخلود هذا الدين، بينما ذهبت المعجزات الحسية، ومضت مع أحداثها الكونية، وتلاشت من الوجود بعد وفاة الأنبياء الكرام الذين أتوا بها، فلم يعد لها وجود وبيان إلا في هذا القرآن الذي أخبر عنها، فكان له الفضل الأعظم عليها سابقاً ولاحقاً، ولله در القائل حيث يقول:

(جاء النبيون بالآيات[2] فا نصرمت[3] وجئتنا بكتاب غير منصرم)

(آياته كلما طال المدى جدد يزينهم جمال العتق والقدم)

---

[1] الأكمة: الأعمى، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَأُبْرِئُ ٱلْأَكْمَهَ وَٱلْأَبْرَصَ وَأُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾.

[2] الآيات: المراد بها المعجزات جمع آية بمعنى المعجزة.

[3] انصرمت: أي ذهبت بذهابهم.

قال العلامة الزرقاني:

وهنا نلفت النظر إلى أن القرآن بما اشتمل عليه من المعجزات الكثيرة، قد كتب له الخلود فلم يذهب بذهاب الأيام، ولم يمت بموت الرسول عليه الصلاة والسلام، بل هو قائم على فم الدنيا يحاج كل مكذب، ويتحدى كل منكر، ويدعو أمم العالم جمعاء إلى ما فيه من هداية الإسلام وسعادة بني الإنسان، ومن هذا يظهر الفرق جليا بين معجزات نبي الإسلام. ومعجزات إخوانه الأنبياء عليهم أزكى الصلاة وأتم التسليم، فمعجزات محمد في القرآن وحده آلاف مؤلفة، وهي متمتعة بالبقاء إلى اليوم وإلى ما بعد اليوم حتى يرث الله الأرض ومن عليها، أما معجزات سائر الرسل فمحدودة العدد، قصيرة الأمد، ذهبت بذهاب زمانهم، وماتت بموتهم، ومن يطلبها الآن لا يجدها إلا في خبر كان، ولا يسلم شاهد له بها إلا هذا القرآن؟ وتلك نعمة يمنها القرآن على سائر الكتب والرسل، وما صح من الأديان كافة، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ﴾[1]، وقال عز أسمه: ﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ﴾[2]،[3].

لهذا لم تكن معجزة سيد الأنبياء معجزة حسية، تقرع الحس وتستولى على النفوس، فلم تكن عصا نتقلب حية كعصا موسى، أو ناراً. تصير برداً وسلاما كالنار التي ألقى فيها الخليل، أو ناقة تخرج من صخر أصم ولها رغاء كناقة صالح، أو مريضاً يشفى، أو أعمى يبرأ كما فعل عيسى (عليه السلام) وإنما كانت معجزة "عقلية خالدة" لأنها خاتمة الرسالات، فهي خالدة خلود الدهر، باقية بقاء الإنسان.

---

[1] سورة المائدة: آية (٤٨).

[2] سورة البقرة: آية (٢٨٥).

[3] مناهل العرفان: ج٢، ص٢٣٢.

ورسالة النبي (ﷺ) شاملة خالدة لأنها خاتمة الرسالات فكانت الحكمة أن تتفق معجزته مع نوع رسالته، إذ كل نبي سبق كان يأتي برسالة لقوم بأعيانهم وتنتهي بما يأتي بعدها من الرسالات، ولم يكن من الممكن أن تكون معجزة خاتم الأنبياء أمراً حسياً يراه جماعة حين يقع، فإذا لحق الرسول بالرفيق الأعلى انقضى ذلك الأمر المحسوس ولا يراه أحد من بعده، لأن الأمور المحسوسة لا تتفق مع نوع هذه الرسالة ولا مع خلودها، لقد كان القرآن معجزة للناس جميعاً، ولذلك جاء من نوع آخر غير نوع المعجزات السابقة، وقد جاء للدنيا بعد أن اكتملت المدارك البشرية، وارتقى الفكر الإنساني، لأن رسالة سيدنا محمد (ﷺ)، وافت البشرية بعد أن أدركت رشدها وتكامل النمو العقلي في مجموعها، فكانت معجزته تدرك (بالعقل) ولا تحتاج إلى أي نوع من الحس، فهي معان خالدة، يدرك سموها الإنساني في كل الأجيال، وهي معجزة يخاطب بها الناس جميعاً.

المبحث الأول: تعريف الإعجاز وإثباته

الإعجاز: إثبات العجز، والعجز في التعارف: اسم للقصور عن فعل الشيء، وهو ضد القدرة، وإذا ثبت الإعجاز ظهرت قدرة المعجز، والمراد بالإعجاز هنا: إظهار صدق النبي (ﷺ) في دعوى الرسالة بإظهار عجز العرب عن معارضته في معجزته الخالدة –وهي القرآن– وعجز الأجيال بعدهم.

والمعجزة: أمر خارق للعادة مقرون بالتحدي سالم عن المعارضة.

والقران الكريم تحدى به النبي (ﷺ) العرب، وقد عجزوا عن معارضته مع طول باعهم في الفصاحة والبلاغة، ومش هذا لا يكون إلا معجزاً.

فقد ثبت أن الرسول (ﷺ) تحدى العرب بالقرآن على مرحل ثلاث:

أ. **تحداهم بالقرآن كله** في أسلوب عام يتناولهم ويتناول غيرهم من الإنس والجن تحدياً يظهر على طاقتهم مجتمعين، بقوله تعالي: ﴿قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴿٨٨﴾﴾.[1]

ب. **ثم تحداهم بعشر سور منه** في قوله تعالي: ﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۖ قُلْ فَأْتُوا۟ بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِۦ مُفْتَرَيَٰتٍ وَٱدْعُوا۟ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٣﴾ فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَكُمْ فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَآ أُنزِلَ بِعِلْمِ ٱللَّهِ وَأَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٤﴾﴾.[2]

---

[1] سورة البقرة: آية (٨٨).

[2] سورة هود: آية (١٣، ١٤).

ج. **ثم تحداهم بسورة واحدة منه** في قوله: ﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ قُلْ فَأْتُواْ بِسُورَةٍ مِّثْلِهِۦ﴾[1]، وكرر هذا التحدي في قوله: ﴿وَإِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُواْ بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِۦ﴾[2].

ومن عنده إلمام قليل بتاريخ العرب وأدب لغتهم يدرك العوامل السابقة لبعثة الرسول (ﷺ) التي رقت بلغة العرب وهذبت لسانها وجمعت خير ما في لهجاتها من أسواق الأدب والمفاخرة بالشعر والنثر، حتى انتهى مصب جداول الفصاحة وإدارة الكلام بالبيان في لغة قريش التي نزل بها القرآن، وما كان عليه العرب من صلف يعلوا بأحدهم عن أبناء عمومته أنفاً وكبراً مضرب مثل فى التاريخ الذي سجل لهم أياماً نسبت إليهم لما أحدثوه فيها من معارك وحروب طاحنة، أشعلها شرر من الكبرياء والأنفة.

ومثل هؤلاء مع توفر دواعي اللسان وقوة البيان التي يوقدها حماس القبيل ويؤججها أتون الحمية لو تسنى لهم معارضة القرآن الكريم لأثر هذا عنهم، وتطاير خبره في الأجيال، فالقوم قد تصفحوا آيات الكتاب وقلبوها على وجوه ما نبغو فيه من شعر ونثر فلم يجدوا مسلكاً لمحاكاته، او منفذاً زلزلت آيات القرآن الكريم قلوبهم كما أثر ذلك عن الوليد بن المغيرة، وعندا عجزت حيلتهم، رموه بقول باهت فقالوا: سحر يؤثر، أو شاعر مجنون، أو أساطير الأولين، ولم يكن لهم بد أمام العجز والمكابرة إلا أن يعرضوا رقابهم للسيوف، وكأن اليأس القاتل بنقل بنيه من نظرتهم للحياة الطويلة والعمر المديد إلى ساعة الاحتضار فيستسلمون للموت الزؤام –وبهذا ثبت إعجاز القرآن بلا مراء.

---

[1] سورة يونس: آية (٣٨).

[2] سورة البقرة: آية (٢٣).

وكان سماعه حجة ملزمة ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ٱسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ﴾.[1]

وكان ما يحتويه من نواحى ﴿وَقَالُواْ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَٰتٌ مِّن رَّبِّهِۦ قُلْ إِنَّمَا ٱلْأَيَٰتُ عِندَ ٱللَّهِ وَإِنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ۝ أَوَ لَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ﴾.[2]

وعجز العرب عن معارضة القرآن مع توفر الدواعي عجز للغة العربية في ريعان شبابها وعنفوان قوتها.

والإعجاز لسائر الأمم على مر العصور ظل ولا يزال في موقف التحدي شامخ الأنف، فأسرار الكون التي يكشف عنها العلم الحديث ما هي إلا مظاهر للحقائق العليا التي ينطوى عليها سر هذا الوجود في خالقة ومدبره، وهو ما أجمله القرآن أو أشار اليه –فصار القرآن بهذا معجزاً للإنسانية كافة.

---

[1] سورة التوبة: آية (٦).

[2] سورة العنكبوت: آية (٥٠–٥١).

المبحث الثاني: متي يتحقق الإعجاز؟

والإعجاز لا يتحقق إلا إذا توافرت أمور ثلاثة نجملها فيما يلي:

أ. الأول: التحدي، أي (طلب المباراة والمعارضة).

ب. الثاني: أن يكون الدافع إلى رد التحدي قائماً.

ج. الثالث: أن يكون المانع منتفياً.

ولنوضح هذه الأمور الثلاثة ببعض الأمثلة فنقول:

الأمر الأول: هذا القرآن العظيم (معجزة محمد الكبرى) الذي تحدى الله به العرب خاصة، والناس أجمعين، يأتي به نبي أمي، لا يعرف القراءة والكتابة، ولم يدرس في مدرسة، أو يتلق علومه في جامعة من الجامعات الكبيرة، ولم يثبت عنه أنه كان قد تلقى شيئاً من العلوم والمعارف عن بعض النابغين من العلماء، أو المبرزين في صنوف الثقافة والعرفان، ولم يتصل بأحد من علماء أهل الكتاب (اليهود والنصارى) حتى يطلع على أنباء الأمم السابقين، وأخبار الأنبياء المتقدمين، جاءهم بهذا الكتاب المجيد، متحدياً لهم –وهم أئمة الفصاحة وفرسان البلاغة– وطلب منهم معارضة القرآن، بعبارات قوية، ولهجات واخزة تستفز العزيمة وتدفع إلى المباراة، وتزل معهم من التحدي بجميع القرآن، إلى التحدي بعشر سور مثله، ثم إلى التحدي بسورة واحده من مثله، وهم في كل هذا واجمون، لا ينبسون ببنت شفة، وهم رغم هذا التحديث ينتقلون. من عجز إلى عجز، ومن هزيمة إلي هزيمة، أفليس في هذا أكبر شاهد وبرهان على إعجاز القرآن؟!

أسلوب القرآن في التحدي:

جاء التحدي في القرآن الكريم بصور متعددة، وأساليب متنوعة تهز كيان العرب هزاً، وتجرهم إلى الميدان جراً، في اسلوب ممتع أخاذ، يملك عليهم شعورهم، ويستحون على أفئدتهم، بسحره وجماله ورونقه.

لقد تحداهم على أن يأتوا بمثل القرآن، فعجزوا وولوا الأدبار، مع أنهم فرسان الفصاحة، وملوك البيان.

فتنزل معهم إلى (عشر سور) من مثله مفتريات، فانقطعوا واندحروا وعجزوا عن الإتيان بتلك السور العشر.

فتنزل معهم إلى ما هو أسهل وأيسر، إلى الإتيان بمثل (سورة واحدة) فقط من سور القرآن، فلم يتقدم واحد منهم إلى حلبة الميدان.. وبذلك سجل عليهم القرآن العجز والهزيمة، وثبتت معجزة محمد، النبي الأمي، على أن هذا القرآن تزيل من رب العالمين: ﴿وَإِنَّهُۥ لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝١٩٢ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ۝١٩٣ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ۝١٩٤ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ ۝١٩٥﴾[1]، وصدق الله حيث يقول: ﴿قُلْ نَزَّلَهُۥ رُوحُ ٱلْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ لِيُثَبِّتَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ۝١٠٢﴾.[2]

أنواع التحدي:

والتحدي الذي جاء في القرآن الكريم كان على نوعين:

١. التحدي العام. **٢. التحدي الخاص.**

---

[1] سورة الشعراء: آية (١٩٢-١٩٥).

[2] سورة النحل: آية (١٠٢).

أما الأول: فقد ورد لجميع الخلائق بما فيهم الفلاسفة، والعباقرة، والعلماء، والحكماء، وجاء لجميع البشر بدون استثناء، عربهم وعجمهم، أبيضهم وأسودهم، مؤمنهم وكافرهم، استمع الى هذا التحدى الصارخ في سورة الاسراء: ﴿قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴿٨٨﴾﴾[1].[2]

وأما الثاني: (التحدي الخاص) فقد جاء للعرب خاصة، وعلى الأخص منهم لكفار قريش، وقد ورد هذا التحدي على نوعين أيضاً:

١. **تحدي كلي:** وهو التحدي بجميع القرآن، في أحكامه، وروعته، وبلاغته، وبيانه.

٢. **تحدي جزئي:** وهو التحدي بمثل سورة من سور القران الكريم، ولو من أقصر سورة كسورة الكوثر.

فالأول مثل قوله تعالى: ﴿فَلْيَأْتُوا۟ بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِۦٓ إِن كَانُوا۟ صَٰدِقِينَ ﴿٣٤﴾﴾[3]، والمراد بالحديث في هذه الآية الكريمة (قرآن مثله) أي يأتوا بقرآن يشبه هذا الذى جاءهم به محمد رسول الله، والذي زعموا أنه افتراه وتقوله على الله ؛ كما ورد التحدي بالقرآن كله في سورة القصص في قوله تعالي: ﴿قُلْ فَأْتُوا۟ بِكِتَٰبٍ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ هُوَ أَهْدَىٰ مِنْهُمَآ أَتَّبِعْهُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٤٩﴾﴾.[4]

فقد طلب منهم أن يأتوا بكتاب كامل غير هذا الكتاب الكريم فإذا لم يستجيبوا لدعوته فإنما هم أناس متعنتون، يعبدون الهوى، ويسيرون على غير هدى الله.

---

[1] ظهيراً: أي معيناً وناصراً.

[2] سورة الأسراء: آية (٨٨).

[3] سورة الطور: آية (٣٤).

[4] سورة القصص: آية (٤٩).

أما التحدي الجزئي: فقد ورد في سورة (هود) في قوله تعالي: ﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۖ قُلْ فَأْتُوا۟ بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِۦ مُفْتَرَيَٰتٍ وَٱدْعُوا۟ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٣﴾ فَإِلَّمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَكُمْ فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَآ أُنزِلَ بِعِلْمِ ٱللَّهِ وَأَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٤﴾﴾[1].

كما ورد التحدي بأقل من ذلك تحداهم (بسورة) واحدة من أقصر سور القرآن، وجاء هذا التحدي مقروناً بالتعجيز الفاضح، في الحاضر والمستقبل، مسجلاً عليهم ذلك العجز، بما يثير حميتهم ويغريهم بتكلف المعارضة، لاسيما بعد قولتهم القبيحة ودعواهم الكاذبة حين قالوا: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا قَالُوا۟ قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَآءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَٰذَآ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٣١﴾﴾[2].

جاءهم التحدي في سورة البقرة في قوله تعالي: ﴿وَإِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِۦ وَٱدْعُوا۟ شُهَدَآءَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٢٣﴾ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا۟ وَلَن تَفْعَلُوا۟ فَٱتَّقُوا۟ ٱلنَّارَ ٱلَّتِى وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ ۖ أُعِدَّتْ لِلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٤﴾﴾.[3]

قال العلامة (القرطبي) في تفسيره (الجامع لأحكام القرآن): قوله: ﴿فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا۟﴾. يعني فيما مضي،﴿وَلَن تَفْعَلُوا۟﴾. أي تطيقوا ذلك فيما يأتي، وفيه إثارة لهممهم، وتحريك لنفوسهم، ليكون عجزهم بعد ذلك أبدع، وهذا من الغيوب التي أخبر بها القرآن قبل وقوعها.[4]

أما الأمر الثاني وهو: (قيام المقتضي للمباراة والمعارضة) عند العرب فقد كان حاصلاً وقائماً، فإن النبي عليه الصلاة والسلام جاءهم بدين جديد، أبطل فيه دينهم، وسفه أحلامهم، وسخر من آلهتهم وأصنامهم، وجعلهم أضحوكة بين الناس، دعاهم إلى اتباعه وإلى اعتقاد أنه رسول من عند الله، وقال لهم: ان الحجة علي صدقي هذا الكتاب الذي أوحاه الله إنيّ،

---

[1] سورة هود: آية (١٣-١٤).

[2] سورة الأنفال: آية (٣١).

[3] سورة البقرة: آية (٢٣-٢٤).

[4] تفسير القرطبي: ج١، ص٣٢.

فإذا لم تصدقوني في ذلك فأنا أتحداكم أن تأتوا بمثله، أو بمثل سورة منه، وإذا عجزتهم فذلك آية صدقي، وبرهان رسالتي إليكم.. فما كان أحوجهم إلى أن يأتوا بمثله خاصة بعد هذا التحدي السافر، والتهكم الشديد اللاذع، بعقولهم وآلهتهم وأصنامهم، أقول ما كان أحوجهم إلي دحض ما ادعاه، وإبطال أنه من عند الله، وذلك بسلوك أيسر الطرق، وولوج أقرب الأبواب لرد دعواه وذلك عن طريق ما برعوا فيه، واشتهروا بجودته وإتقانه ألا وهو (البيان) في النطق و(الفصاحة) في اللسان، وكان ذلك أنفع لهم من الحرب التي ذاقوا ويلاتها، وخاضوا غمارها، حتى شربوا كؤوس الأسي وتجرعوا الموت الزؤام ولكنهم اختاروا طعن الرماح، ووقع النبال، ولم يدخلوا في المباراة.

يقول القاضي (الباقلاني) رحمه الله: (كيف يجوز أن يقدروا معارضة القرآن، السهلة عليهم، وذلك يدحض حجته، ويفسد دلالته، ويبطل أمره، فيعدلون عن ذلك إلى سائر ما صاروا إليه، من الأمور التي ليس عليها مزيد في المنابذة والمعاداة، ويتركون الأمر الخفيف؟ هذا ما يمتنع وقوعه في العادات ولا يجوز اتفاقه من العقلاء).

وأما الأمر الثالث: وهو (انتفاء ما يمنعهم من معارضة القرآن) فلأنه نزل بلسان عربي، هو لسانهم، وألفاظه من أحرف العرب، وعباراته على أسلوب العرب، وهم أهل البيان واللسن، وأمراء الفصاحة والبلاغة، وقد دلت أشعارهم، ونطقت خطبهم وحكمهم على براعتهم في ذلك، وعلى أنهم حازوا قصب السبق في مضمار الفصاحة والبيان، كما أثبتت الأيام أنهم من ذوي القدرة والاستطاعة على أن يبرزوا في الشعر والنثر، وأن يحلقوا في سماء الفصحى ألا وهي لغتهم الأساسية (لغة القرآن) التي بها يتفاخرون ويتبارون، ويعقدون المنتديات، ويجتمعون في المحافل، ليستمعوا أروع القصائد والخطب، ويصوغوا أجمل الألفاظ والعبارات، ولم يكونوا في عجز من قدرتهم، أو نقص في عقولهم، بل كانت قدرتهم

موفورة، واستطاعتهم مشهورة، وهم أولوا النهي والألباب، ومع ذلك فالقرآن دعاهم أن يستعينوا بمن شاءوا، ويكملوا ما ينقصهم بأهل الأديان، ويستحضروا عدتهم بالاتصال بالسحرة والكهان، وبمن شاءوا من طوائف الإنس والجان، فليس أمامهم ثمة مانع والنبي (ﷺ) لم يضرب لهم أجلاً للمعارضة، ولم يحدد زمنا للمناقضة، حتى يقول قائل منهم: إن الزمن لا يكفي وليس فيه سعة، كما أن القرآن لم ينزل جملة واحدة حتى يحتجوا بذلك، بل نزلت مفرقاً في ثلاث وعشرين سنة، ببن كل مجموعة وأخرى زمن متسع للمعارضة وللإتيان بمثله لو كان في مقدورهم ذلك، فلما عجزوا دلّ على أنه تنزيل رب العباد، وكفى بذلك دليلا وبرهانا.

المبحث الثالث: شروط المعجزة الإلهية

وللمعجزة شرائط خمسة نبه عليها العلماء، فإن اختل منها شرط لا تكون معجزة:

١. الشرط الأول: أن تكون مما لا يقدر عليه إلا رب العالمين.

٢. الشرط الثاني: أن تخرق العادة وتكون مخالفة للسنن الكونية.

٣. الشرط الثالث: أن يستشهد بها مدعي الرسالة على صدق دعواه.

٤. الشرط الرابع: أن تقع على وفق دعوى النبيّ المتحدي بتلك المعجزة.

٥. الشرط الخامس: ألا يأتي أحد بمثل تلك المعجزة على وجه لمعارضة.

فهذه الشروط الخمسة إن تحققت كان ذلك الأمر الخارق للعادة معجزة دالة على نبوة صاحب الدعوى، التي ظهرت المعجزة على يده، وإن لم تتحقق خرجت عن كونها معجزة، ولم تدل على صدق صاحب الدعوى.

أما الشرط الأول: فإنه لو أتى آت –في زمن يصح فيه مجيء الرسل– وادعى الرسالة وجعل معجزته أن يقوم ويقعد، ويأكل ويشرب، ويتحرك من مكان إلى مكان، ولم يكن هذا الذي ادعاه معجزة، ولا دالاً على صدقه لقدرة الخلق على مثله، وإنما يجب أن تكون المعجزات مما لا يقدر عليها البشر كفلق البحر، وانشقاق القمر، وإحياء الموتى، .. الخ.

وأما الثاني: وهو خرق العادة فلو قال المدعي للنبوة: معجزتي أن تطلع الشمس من المشرق وتغرب من المغرب، وأن يأتي النهار بعد الليل، لم يكن فيما. ادعاه معجزة، لآن هذه الأمور وان كان لا يقدر عليها إلا الله، لكنها لم تفعل من أجله، وقد كانت من قبله، فليس فيها دلالة علي صدقه.

واما الثالث: وهو أن يستشهد بها مدعي النبوة وتحصل عند طلبها تصديقاً لدعواه، فلو ادعي إنسان أن معجزته ان ينقلب الجماد إلى حيوان او إنسان، ولم ينقلب لا يدل على صدق دعواه.

وأما الرابع: وهو أن تقع المعجزة على وفق الدعوى لا على خلافه لأنها حينذاك تكون تكذيباً له، روي أن (مسيلمة الكذاب) لعنه الله طلب منه أصحابه أن يتفل في بئر ليكثر فيها الماء فغارت البئر فدل على كذبه.[1]

وأما الخامس: ألا تعارض المعجزة، فإن عورضت بطل كونها معجزة، ولم تدل على صدق صاحبها، فلو استطاع أحد فلق البحر أو شق القمر لم تعد معجزة، ولهذا قال تعالى في خطاب المشركين: ﴿فَلْيَأْتُواْ بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِۦٓ إِن كَانُواْ صَٰدِقِينَ ﴿٣٤﴾﴾.[2]

---

[1] انظر تفسير القرطبي، ج١، ص٧٠.

[2] سورة الطور: آية (٣٤).

المبحث الرابع: بم كان إعجاز القرآن؟

القرآن العظيم كلام الله المعجز للخلق، في أسلوبه ونظمه، وفي روعته وبيانه، وفي علومه وحكمه، وفي تأثير هدايته، وفي كشفه الحجب عن العيوب الماضية والمستقبلة، ولقد جاء العلماء في كشف أسرار البيان، عن وجود إعجاز القران، بعد أن ثبتت عندهم بالوجدان والبرهان، وقد أجمع أهل العربية قاطبة، وأهل اللسن منهم والبيان، على أن القرآن (معجز بذاته) أي أن إعجازه إنما كان بفصاحة ألفاظه، وروعة بيانه، وأسلوبه الفريد، الذي لا يشابهه فيه أسلوب، لا من نثر، ولا من شعر، ومسحته اللفظية الخلابة، التي تتجلى في نظامه الصوتي، وجماله اللغوي، وبراعته الفنية.

مذهب أهل الصرّفة:

وقد ذهب بعض المعتزلة منهم (أبو إسحق النظّام) إلى أن إعجاز القرآن إنما كان بـ(الصرفة) بمعنى ان الله (ﷻ) صرف البشر عن معارضة القرآن مع قدرتهم عليها وخلق فيهم العجز عن محاكاته في أنفسهم وألسنتهم، ولولا أن الله صرفهم عن ذلك لاستطاعوا أن يأتوا بمثله ..

ولعمري هذا قول من لم يتذوق طعم العربية، ولا عرف أسرارها، بل قول من لم يدرك من العلوم إلا قشوراً لا تسمن ولا تغني من جوع، وهو قول ساقط مرذول، مخالف لما أجمع عليه العلماء والفصحاء والبلغاء في القديم والحديث، **يقول حجة الأدب العربي (مصطفى الرافعي) رحمه الله**[1]: "وقد اختلفت آراء المعتزلة في وجه إعجاز القرآن، فذهب شيطان المتكلمين (أبو إسحق النظام) إلى أن الإعجاز كان بالصرفة، وهي أن الله صرف العرب عن معارضة القرآن مع قدرتهم عليها، فكان هذا الصرف خارقا للعادة وقال (المرتضى من

[1] إعجاز القرآن، للرافعي، ص١٦٤.

الشيعة): بل معنى الصرفة أن الله سلبهم العلوم التي يحتاج إليها في المعارضة ليجيئوا بمثل القرآن .. فكأنه يقول: إنهم بلغاء يقدرون على مثل النظم والأسلوب ولا يستطيعون ما وراء ذلك مما لبسته ألفاظ القرآن من المعاني، إذ لم يكونوا أهل علم، ولا كان العلم في زمنهم .. وهذا رأي بين الخلط كما ترى!

ثم قال: وعلى الجملة فإن القول بالصرفة لا يختلف عن قول العرب فيه ﴿إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ ۝٢٤﴾[1]، وهذا زعم رده الله علي أهله، وأكذبهم فيه، وجعل القول به ضرباً من العمي ﴿أَفَسِحْرٌ هَٰذَآ أَمْ أَنتُمْ لَا تُبْصِرُونَ ۝١٥﴾[2].

وعلى ذلك المذهب الفاسد يمكن أن يقال: إن المعجز ليس هو القرآن الكريم على حد زعمهم إنما هو (الصرّفة) التي بسببها عجزوا عن الإتيان بمثله ﴿صَرَفَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُم بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ ۝١٢٧﴾[3].

دفع شبهة القول بالصرّفة:

إن أصحاب هذا القول يذهبون إلى أن القرآن ليس معجزاً بذاته وإنما كان إعجازه بسبب أمرين:

الأول: الصارف الإلهي الذي زهدهم في المعارضة، فكسلوا وقعدوا.

الثاني: العارض المفاجئ الذي عطل مواهبهم البيانية وقدرتهم البلاغية.

وهذا القول –بشقّيه– باطل، لا يثبت أمام البحث، ولا يتفق مع الواقع وذلك لعدة أسباب:

---

[1] سورة المدثر: آية (٢٤).

[2] سورة الطور: آية (١٥).

[3] سورة التوبة: آية (١٢٧).

أولا: لو كان هذا القول صحيحاً لكان الاعجاز في (الصرّفة) لا في القرآن نفسه وهذا باطل بالإجماع.

ثانياً: لو صح القول بالصرّفة لكان ذلك (تعجيزاً) لا (إعجازاً) لأنه حينئذ يشبه ما لو قطعنا لسان إنسان ثم كلفناه بعد ذلك بالكلام، فهذا ليس من باب العجز وإنما هو من باب التعجيز.

(ألقاه في اليم مكتوفاً وقال له إياك إياك أن تبتل بالماء)

ثالثا: لو كان هناك صارف زهّدهم في المعارضة من (كسل أو ملل) لما وقفوا في وجه نبي الإسلام، ولما آذوه وأصحابه، ولما عذبوا المسلمين وشرّدوهم، ولما قاطعوا الرسول وعشيرته وحاصروهم في الشعب حتى أكلوا ورق الشجر، ولما فاوضوه وساوموه على أن يترك الدعوة ثم اضطروه إلى الهجرة هو وأصحابه الكرام، إلى غير ما هنالك من دوافع وبواعث جعلتهم يسلكون كل سبيل للقضاء على الإسلام.

رابعا: لو كان هناك عارض مفاجئ عطّل مواهبهم البيانية لأعلنوا ذلك في الناس، ليلتمسوا العذر لأنفسهم وبالتالي ليقللوا من شأن القرآن، ولكانوا بعد نزول القران أقل فصاحة وبلاغة منهم قبل نزوله، وهذا باطل واضح البطلان.

خامساً: لو كان هذا العارض المفاجئ صحيحاً لأمكننا نحن الآن، وأمكن المشتغلين بالأدب العربي في كل عصر أن يعارضوا القرآن، وأن يتبينوا الكذب– في دعوى إعجازه، وكل هذه الأشياء باطلة فهل يرضى عاقل لنفسه أن يقول بعد ذلك كله: إن العرب كانوا مصروفين عن معارضة القرآن ونبيّ القرآن، وأنهم كانوا مخلدين إلى العجز والكسل، زاهدين في النزول لذلك الميدان؟! وهل يصح لإنسان يحترم نفسه وعقله أن يصدق بمثل هذا الافتراء القول (بتعطيل المواهب والحواس) بعد أن يستمع إلي شهادة ألد الأعداء من صناديد قريش

وهو (الوليد بن المغيرة) حين قال كلمته المشهورة: (والله لقد سمعت آنفاً كلاماً ليس من كلام بشر ليس بشعر ولا نثر ولا كهانة، والله إن له لحلاوة، وان عليه لطلاوة، وإن أعلاه لمثمر، وإن أسفله لمغدق، وإنه ليعلوا وما يعلي عليه) والفضل ما شهدت به الأعداء.

المبحث الخامس: وجوه إعجاز القرآن الكريم

آراء العلماء في الإعجاز:

بعد أن أجمع العلماء على إعجاز القرآن بذاته، وعلى عدم استطاعة أحد من البشر الاتيان بمثله، اختلفت آراؤهم في وجه إعجاز القرآن على آراء:

أ. **يرى بعضهم:** أن وجه الاعجاز في القرآن هو ما اشتمل عليه من النظم الغريب المخالف لنظم العرب ونثرهم، في مطالعه، ومقاطعه، وفواصله.

ب. **ويرى البعض الآخر:** أن وجه الاعجاز إنما يكمن في فصاحة ألفاظه، وبلاغة عباراته، وجودة سبكه، إذ هو في الدرجة العليا من البلاغة التي لم يعهد مثلها.

ج. **ويرى آخرون أن الإعجاز في خلوه من التناقض،** واشتماله على المعاني الدقيقة، والأمور الغيبية التي ليست بمقدور البشر، ولا في استطاعتهم معرفتها، كما أنه سليم من التناقض والتعارض.

د. وهناك من يقول: إن وجه الإعجاز هو ما تضمّنه القرآن من المزايا الظاهرة والبدائع الرائقة، في الفواتح، والمناصب، والخواتيم في كل سورة، والمعوّل عليه عندهم ما يلي:

١. **الفصاحة في الألفاظ.**

٢. **البلاغة في المعاني.**

٣. **صورة النظم البديع.**

وهذه الأقوال كلها لا تخرج عن دائرة واحدة هي (الدائرة البيانية) التي امتاز بها القرآن، وهي وإن كانت حقاً إلا أن إعجاز القرآن ليس في (الفصاحة والبلاغة) فحسب، بل هناك

وجوه أخرى لإعجاز القرآن، وقد أجاد العلامة (القرطبي) رحمه الله في تفسيره، فعد عشرة وجوه لإعجاز القرآن، كما ذكر فضيلة الشيخ (الزرقاني) في كتابه (مناهل العرفان) أربعة عشر وجهاً من وجوه الإعجاز، منها ما ذكره القرطبي ومنها ما لم يذكره، ونحن نذكر هذه الوجوه بالإيجاز ثم نعقبها بشيء من التفصيل فنقول ومن الله نستمد العون:

وجوه إعجاز القرآن الكريم:

أولاً: النظم البديع المخالف لكل نظم معهود في لسان العرب.

ثانياً: الأسلوب العجيب المخالف لجميع الأساليب العربية.

ثالثاً: الجزالة التي لا يمكن لمخلوق أن يأتي بمثلها.

رابعاً: التشريع الدقيق الكامل، الذي يبرز كل تشريع وضعي.

خامساً: الإخبار عن المغيبات التي لا تعرف إلا بالوحي.

سادساً: عدم التعارض مع العلوم الكونية المقطوع بصحتها.

سابعاً: الوفاء بكل ما أخبر عنه القرآن الكريم من وعد ووعيد.

ثامناً: العلوم والمعارف التي أشتمل عليها (العلوم الشرعية والعلوم الكونية)

تاسعاً: وفاؤه بحاجات البشر.

عاشراً: تأثيره في قلوب الأتباع والأعداء.

أما الوجه الأول من وجوه إعجازه فهو (النظم البديع): المخالف لكل نظم معهود في لسان العرب، فالقرآن الكريم لا يشبهه شيء في نظمه، لا من شعر، ولا من نثر وذلك بشهادة أساطين البلاغة، وأئمة الفصاحة والبيان، (الوليد بن المغيرة) و(عتبة بن ربيعة) وغيرهما من فصيحاء العرب ومشاهيرهم ومن أمثلة ذلك:

١. يروي أن الوليد بن المغيرة جاء الى النبي (ﷺ) فقرأ عليه القرآن، فكأنه رق له فبلغ ذلك أبا جهل فاءتاه فقال: يا عم، إنّ قومك يريدون أن يجمعوا لك مالا ليعطوه لك، فإنك أن أتيت محمداً لتعرض لما قبله (أي لتنال من فضله) فقال الوليد: لقد علمت قريش أني من أكثرها مالا، فقال له أبو جهل: فقال فيه قولاً يبلغ قومك انك منكر له، قال: وماذا أقول؟ فو الله ما فيكم رجل أعلم بالشعر مني، لا برجزه، ولا بقصيده، ولا بأشعار الجن، والله ما ما يشبه هذا الذي يقول شيئاً من هذا، والله إن لقوله لحلاوة، وإن عليه لطلاوة، وإن أعلاه لمثمر، وإن أسفله لمغدق، وإنه ليعلو وما يعلي عليه: فقال أبو جهل اللعين: والله ما يرضي قومك حتى تقول فيه، قال: فدعني حتى أفكر، فلما فكر قال: ﴿فَقَالَ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ ۝٢٤﴾.[1] فنزل فيه قول الله تعالي: ﴿ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا ۝١١ وَجَعَلْتُ لَهُۥ مَالًا مَّمْدُودًا ۝١٣﴾.[2] إلى قوله: ﴿ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ ۝٢٢ ثُمَّ أَدْبَرَ وَٱسْتَكْبَرَ ۝٢٣ فَقَالَ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ ۝٢٤ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا قَوْلُ ٱلْبَشَرِ ۝٢٥﴾.[3]

٢. وأخرج ابن إسحق في السيرة (أن أبا جهل قال في ملأ من قريش: لقد التبس علينا أمر محمد، فلو التمستم لنا رجلا عالما بالشعر، والكهانة، والسحر فكلمه ثم أتانا ببيان عن أمره؟ فقال (عتبة بن ربيعة) –وكان من أشراف القوم وسادتهم– أنا أقوم إليه وأكلمه! فأتاه فقال يا محمد: أنت خير أم هاشم؟ أنت خير أم عبد المطلب؟ أنت خير أم عبد الله؟ فبم تشتم آلهتنا وتضللنا؟ فإن كنت تريد الرياسة، عقد لك اللواء فكنت رئيسنا وإن كنت تريد النساء زوجناك ما تشاء منهن، تختار من أي

---

[1] سورة المدثر: آية (٢٤).

[2] سورة المدثر: آية (١١).

[3] سورة المدثر: آية (٢٢–٢٥).

بنات قريش ما شئت، وإن كنت تريد المال جمعنا لك من أموالنا حتى تكون أغنانا وأكثرنا مالا، والنبي (ﷺ) ساكت لا يجيبه، فلما فرغ من عرضه، قال له النبي (ﷺ): أفرغت؟ قال: نعم، قال فاسمع إذن، فتلا عليه سورة فصلت: ﴿حمٓ ۝١ تَنزِيلٌ مِّنَ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝٢ كِتَٰبٞ فُصِّلَتۡ ءَايَٰتُهُۥ قُرۡءَانًا عَرَبِيّٗا لِّقَوۡمٖ يَعۡلَمُونَ ۝٣ بَشِيرٗا وَنَذِيرٗا فَأَعۡرَضَ أَكۡثَرُهُمۡ فَهُمۡ لَا يَسۡمَعُونَ ۝٤﴾[1]، حتي بلغ قوله تعالي: ﴿فَإِنۡ أَعۡرَضُواْ فَقُلۡ أَنذَرۡتُكُمۡ صَٰعِقَةٗ﴾.[2]، فأمسك عتبة على فيه وناشده بالرحم أن يكف، ورجع إلى أهله ولم يخرج إلى قريش، فلما احتبس عنهم قالوا: ما نرى عتبة إلا قد صبأ! فانطلقوا إليه وقالوا يا عتبة: ما حبسك عنا إلا أنك قد صبأت، فغضب ثم قال لهم: والله لقد كلمته فأجابني بشيء والله ما هو بشعر، ولا بسحر، ولا بكهانة، وقد ناشدته بالرحم أن يكف خشية أن ينزل بكم العذاب، وقد علمتم أن محمدا إذا قال شيئا لم يكذب[3]).

قال العلامة (القرطبي) رحمه الله: (وإذا اعترف عتبة على موضعه من اللسان، وموضعه من الفصاحة والبلاغة، بأنه ما سمع مثل القران قط، كان في هذا القول، مقراً بإعجاز القرآن له ولضربائه من المتحققين بالفصاحة والقدرة على التكلم بجميع أجناس القول وأنواعه).

أما الوجه الثاني لإعجاز القرآن: فهو (الأسلوب العجيب) المخالف لجميع الأساليب العربية، فقد جاء القرآن بذلك الأسلوب الرائع الخلاب الذي بهر العرب برونقه وجماله، وعذوبته وحلاوته، وقد كانت فيه من الخصائص العليا ما لم توجد في كلام بشر على نحو ما وجدت في القرآن، خصوصاً وأن النبي (ﷺ) تحدى به فأعجز أساطين الفصحاء، وأعيا

---

[1] سورة فصلت: آية (١-٤).

[2] سورة فصلت: آية (١٣).

[3] انظر الكشاف، ج٤، ص١٩٢.

مقاويل البلغاء، وأخرس ألسنة فحول البيان، وذلك في عصر كانت القوى فيه قد توافرت على الإجادة والتبريز في هذا الميدان، وفي أمة كانت مواهبها محشودة للتفوق.

في هذه الناحية يقول (الزرقاني) رحمه الله: (وها قد مرت على اللغة العربية، من عهد نزول القرآن إلى عصرنا هذا، أدوار مختلفة بين علوّ ونزول، واتساع وانقباض، وحركة وجمود، وحضارة وبداوة، والقرآن في كل هذه الأدوار، واقف في عليائه، يطل على الجميع من سمائه، وهو يشع نوراً وهداية، ويفيض عذوبة وجلالة، ويسيل رقة وجزالة، ويرف جدّة وطلاوة، ولا يزال كما كان غضا طرياً، يحمل راية الإعجاز، ويتحدى أمم العالم في يقين وثقة، قائلا في صراحة الحق وقوته، وسلطان الإعجاز وصولته ﴿قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴿٨٨﴾﴾[1]،[2].

خصائص أسلوب القرآن:

وللقران الكريم في أسلوبه العجيب المخالف لجميع الأساليب البشرية خصائص عديدة نجملها فيما يلي:

الخاصة الأولى: مسحة القرآن اللفظية، التي تتجلى في نظامه الصوتي، وجماله اللغوي.

الخاصة الثانية: إرضاؤه العامة والخاصة، بمعنى أن الجميع يحسون بجلاله ويشعرون بروعته.

الخاصة الثالثة: إرضاؤه العقل والعاطفة معاً، فالقرآن يخاطب العقل والقلب، ويجمع الحق والجمال معا.

---

[1] سورة الاسراء: آية (٨٨).

[2] مناهل العرفان، ج٢، ص٣٢٩.

الخاصة الرابعة: جودة سبك القرآن وإحكام سرده، فكأنه سبيكة واحدة تلعب بالعقول وتأخذ بالأبصار.

الخاصة الخامسة: براعته في تصريف القول، وتفننه في ضروب الكلام، بمعنى أنه. يورد المعنى الواحد بألفاظ شتى، وطرق مختلفة، وكأنها رائعة فائقة.

الخاصة السادسة: جمع القرآن بين الإجمال والبيان.

الخاصة السابعة: الوفاء بالمعني مع القصد في اللفظ[1].

ويقول المرحوم فضيلة الشيخ (الزرقاني) في موضوع خصائص أسلوب القرآن: (للقران مسحة خلابة عجيبة: تتجلى في نظامه الصوتي، وجماله اللغوي .. **ونريد بنظام القرآن الصوتي:** اتساق القرآن وائتلافه في حركاته وسكناته، ومداته وغناته، واتصالاته وسكتاته، اتساقاً عجيباً، وائتلافا رائعاً، يسترعي الأسماع ويستهوي النفوس، بطريقة لا يمكن أن يصل إليها أي كلام اخر من منظوم ومنثور.

ونريد بجمال القران اللغوي، تلك الظاهرة العجيبة التي امتاز بها القرآن في وصف حروفه وترتيب كلماته، ترتيباً دونه كل ترتيب تعاطاه الناس في كلامهم، ولقد وصل هذا الجمال اللغوي إلى قمة الإعجاز، بحيث لو دخل في القران شيء من كلام الناس لاعتل مذاقه في أفواه قارئيه، واختل نظامه في آذان سامعيه، ومن عجيب أمر هذا الجمال اللغوي، وذلك النظام الصوتي، أنهما كما كانا دليل إعجاز من ناحية، كانا سوراً منيعا لحفظ القران من ناحية أخرى، وذلك من شأن الجمال اللغوي، والنظام الصوتي، أن يسترعي الأسماع، ويثير الانتباه، ويحرك داعية الإقبال في كل إنسان إلى هذا القرآن الكريم، وبذلك يبقي أبد

[1] انظر مناهل العرفان للزرقاني.

الدهر سائداً على ألسنة الخلق وفي آذانهم، ويعرف بذاته ومزاياه بينهم فلا يجرؤ أحد على تغييره وتبديله، مصداقا لقوله سبحانه: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ۝٩﴾[1]،[2].

ومن الأمثلة التي تدل علي أن القرآن يخاطب العقل والقلب معاً، ويجمع الحق والجمال معاً، انظر إليه وهو في معمعان إقامة الدليل العقلي على البعث والنشور في مواجهة المنكرين المكذبين، كيف يسوق استدلاله سوقاً يهز القلوب هزاً، ويمتع العاطفة إمتاعا، بما جاء في طي هذه الأدلة المسكتة المقنعة، إذ قال سبحانه في سورة (فصلت): ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنَّكَ تَرَى ٱلْأَرْضَ خَٰشِعَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ ۚ إِنَّ ٱلَّذِىٓ أَحْيَاهَا لَمُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰٓ ۚ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ۝٣٩﴾[3]، واستمع اليه في سورة (ق) إذ يقول: ﴿وَنَزَّلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً مُّبَٰرَكًا فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ جَنَّٰتٍ وَحَبَّ ٱلْحَصِيدِ ۝٩ وَٱلنَّخْلَ بَاسِقَٰتٍ لَّهَا طَلْعٌ نَّضِيدٌ ۝١٠ رِّزْقًا لِّلْعِبَادِ ۖ وَأَحْيَيْنَا بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا ۚ كَذَٰلِكَ ٱلْخُرُوجُ ۝١١﴾.[4]

تأمل هذا الأسلوب البارع، الذي أقنع العقل، وأمتع العاطفة في آن واحد، حتى فى الجملة التي هي بمثابة النتيجة من مقدمات الدليل، اذ قال في الآية الأولى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِىٓ أَحْيَاهَا لَمُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰٓ ۚ﴾. وفي الآيات الأخيرة قال ﴿كَذَٰلِكَ ٱلْخُرُوجُ﴾. أي الخروج من القبور، والبعث والنشور.

يا للجمال الساحر، ويا للإعجاز الباهر، الذي يستقبل عقل الإنسان وقلبه معاً، بأنصع الأدلة، وأجمل البيان، في هذه الكلمات المعدودات!!

---

[1] سورة الحجر: آية (٩).

[2] مناهل العرفان، ج٢، ص٢٠٨.

[3] سورة فصلة: آية (٣٩).

[4] سورة ق: آية (٩-١١).

ثم انظر إلى القرآن وهو يسوق قصة (يوسف) مثلا، كيف يأتي في خلالها بالعظات البالغة، ويطلع من خلالها بالبراهين الساطعة، على وجوب الاعتصام، بالعفاف، والشرف، والأمانة، إذ قال في فصل من فصول تلك القصة الرائعة: ﴿وَرَٰوَدَتْهُ ٱلَّتِى هُوَ فِى بَيْتِهَا عَن نَّفْسِهِۦ وَغَلَّقَتِ ٱلْأَبْوَٰبَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ ۚ قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِ ۖ إِنَّهُۥ رَبِّىٓ أَحْسَنَ مَثْوَاىَ ۖ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٢٣﴾﴾.[1]

فتأمل في هذه الآية كيف قوبلت دواعي الغواية الثلاث، بدواعي العفاف الثلاث، مقابلة صورت من القصص الممتع جدالا عنيفاً بين (جند الرحمن) و(جند الشيطان) ووضعتهما أمام العقل المنصف في كفتي ميزان!! وهكذا تجد القرآن كله مزيجا حلوا سائغاً، يخفف على النفوس أن تجرع الأدلة العقلية، ويرفه عن العقول باللفتات العاطفية، فهل تسعد بمثل هذا في كلام البشر؟

والوجه الثالث من وجوه الإعجاز، ذلك الإيجار الرائع، والجزالة[2] الخارقة التي ليس بإمكان مخلوق من البشر أن يحيط بها أو يأتي بمثلها لأنها فوق الطاقة البشرية، والقدرة الانسانية، لقد كان البدوي، راعي الغنم، يسمع القرآن فيخر ساجدا لله رب العالمين، وذلك لروعة هذا الكتاب المجيد، ولما يفعل به في نفوس السامعين، وهو دليل رقة الإحساس، ولطف الشعور من أولئك الرعاة الجفاة.

يروي أن (الأصمعي) خرج ذات يوم فلقي جارية، وسمعها تنشد أبياتاً من الشعر رائعة، فأعجب بتلك الأبيات وهزت منه النفس والقلب، بجمال أسلوبها، وروعة بيانها، وفصاحة ألفاظها، فقال لها: قاتلك الله ما أفصحك؟! فقالت له: ويحك أو يعد هذا فصاحة بعد قول الله تبارك وتعالى: ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنْ أَرْضِعِيهِ ۖ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِى ٱلْيَمِّ وَلَا تَخَافِى وَلَا تَحْزَنِىٓ ۖ

---

[1] سورة يوسف: آية (٢٣).

[2] المراد بالجزالة: الفخامة في الألفاظ، والإجادة في التعبير مع قوة الحبك وعدم التعقيد.

﴿إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ۝٧﴾.[1] ثم قالت له: فقد جمعت هذه الآية على وجازتها بين أمرين، ونهيين، وخبرين، وبدارتين.[2]

فالآية الكريمة جمعت بين أمرين وهما ﴿أَرْضِعِيهِ﴾ و﴿أَلْقِيهِ فِي ٱلْيَمِّ﴾ ونهيين وهما ﴿وَلَا تَخَافِي﴾ و﴿وَلَا تَحْزَنِيٓ﴾ وخبرين وهما ﴿أَوْحَيْنَآ﴾ و﴿خِفْتِ﴾ وبشارتين وهما ﴿إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيْكِ﴾ و﴿وَجَاعِلُوهُ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ فالبشارة الاولى برده إليها سليماً كريماً، والبشارة الثانية وهي أن الله (ﷻ) سيجعله رسولاً هادياً، فانظر –رعاك الله– كيف أدركت هذه الجارية البدوية، بفطرتها العربية، سرًا من أسرار هذا القرآن، فكأن الآية نظمت في عقد من اللؤلؤ والمرجان، فكانت لآلئها بميزان.

يقول القرطبي رحمه الله نقلا عن (ابن الحصاّر): وهذه الثلاثة أوجه من (النظم، والأسلوب، والجزالة) لازمة كل سورة، بل هي لازمة كل آية، وبمجموع هذه الثلاثة يتميز مسموع كل آية وكل سورة عن سائر كلام البشر، وبها وقع التحدي والتعجيز، ومع هذا فكل سورة تنفرد بهذه الثلاثة، من غير أن يضاف إليها أمر آخر من الوجوه العشرة، فهذه سورة(الكوثر) ثلاث آيات قصار، وهي أقصر سورة في القرآن، وقد تضمنت الإخبار عن مغيبين: أحدهما –الإخبار عن الكوثر(نهر في الجنة) وعظمه وسعته وكثرة أوانيه، وذلك يدل على أن المصدقين به أكثر من أتباع سائر الرسل، والثاني: الإخبار عن (الوليد بن المغيرة) وكان عند نزول الآية ذا مال وولد، ثم أهلك الله سجانه ماله وولده[3]، وانقطع نسله[4]..).

---

[1] سورة القصص: آية (٧).

[2] القصة ذكرها القرطبي في تفسيره الجزء الثالث عشر، ص ٢٥٢، وذكرها صاحب المنار في الجزء الأول، ص٢٨.

[3] معني الأبتر: الذي لا ولد له ولا نسل، والشانئ معناه: المبغض وقد قال الزمخشري أنها نزلت في (العاص بن وائل).

[4] الجامع لأحكام القرآن للقرطبي، ج١، ص٧٤.

والوجه الرابع من وجوه إعجاز القرآن الكريم ذلك التشريع الإلهي الكامل، الذي يسمو فوق كل تشريع وضعي عرفه البشر، في القديم والحديث، فالقران الكريم هو الذي وضح أصول العقائد، وأحكام العبادات، وقوانين الفضائل والآداب، وقواعد التشريع الاقتصادي، والسياسي، والمدني والاجتماعي، وهو الذي نظم حياة الأسرة، والمجتمع، ووضع اعدل المبادئ الإنسانية الكريمة التي ينادى بها دعاة الإصلاح في القرن العشرين ألا وهي (المساواة، العدالة، الحرية) إلى غير ما هنالك من أسس الحضارة والتشريع، الذي تسعي إليه المدينة الحديثة.

وقد نص القرآن الكريم على امهات الجرائم، وأعظمها خطراً على مستقبل الفرد والجماعة، ووضع لكل منها عقوبات مقدرة لا يجوز الزيادة عليها أو النقصان منها، أو التساهل في تطبيقها، وترك ما سوى ذلك من (الجرائم الخفيفة) للحاكم المسلم، ينفذ فيها ما يراه من العقوبة، على ضوء السنة النبوية المطهرة، وبالشكل الذي يحقق روح الإسلام من إرادة الخير للناس، وتطهير المجتمع من المفاسد والمظالم الاجتماعية، أما الجرائم الكبيرة التي عين لها القران عقوبات رادعة فهي خمسة (جريمة القتل، جريمة الزنى، جريمة السرقة، جريمة قطع الطريق، جريمة الاعتداء على كرامة الناس بالقذف)

ولعل أروع مثل للمقارنة بين (التشريع الإلهي القرآني) وبين (التشريع الوضعي) الذي هو من صنيع البشر ذلك الأثر العظيم الذي تركه القرآن الكريم في نفوس العرب بسبب تلك الطريقة الحكيمة التي سلكها في معالجه المفاسد والأمراض الاجتماعية، حيث قضى على كل فساد، واستأصل كل جريمة من نفوسهم، وجعلهم خير أمة اخرجت للناس، فملكوا الدنيا وسادوا العالم.

والوجه الخامس من وجوه إعجاز القرآن الكريم (إخباره عن المغيبات) وذلك برهان ساطع، ودليل قاطع على أن هذا القرآن ليس من كلام بشر، إنما هو كلام علام الغيوب، الذي لا تخفى عليه خافية، ولو كان من صنع محمد -كما زعموا- لظهرت علائم الوضع في تلك الأخبار الغيبية، بوقوعها على خلاف ما أخبر ولافتضح أمره بالكذب الصريح، وحاشاه (ﷺ) من الكذب على الله.

أ. **فمن هذه الأخبار الغيبية:** إخباره عن الحرب التي ستقع ببن الروم والفرس، وستكون الغلبة فيها والانتصار للروم بعد ان انكسروا في الحرب السابقة، وذلك في قوله تعالي: ﴿الٓمٓ ۝١ غُلِبَتِ ٱلرُّومُ ۝٢ فِيٓ أَدۡنَى ٱلۡأَرۡضِ وَهُم مِّنۢ بَعۡدِ غَلَبِهِمۡ سَيَغۡلِبُونَ ۝٣ فِي بِضۡعِ سِنِينَۗ لِلَّهِ ٱلۡأَمۡرُ مِن قَبۡلُ وَمِنۢ بَعۡدُۚ وَيَوۡمَئِذٖ يَفۡرَحُ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ۝٤ بِنَصۡرِ ٱللَّهِۚ يَنصُرُ مَن يَشَآءُۖ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ۝٥﴾.[1]

يقول الزمخشري: (وهذه الآية من الآيات البينة الشاهدة على صحة النبوة، وأن القرآن من عند الله، لأنها إنباء عن علم الغيب الذي لا يعلمه إلا الله).

ب. **تنبؤ القرآن بانهزام المشركين قبل وقوع الحرب:** وذلك في قوله تعالي في سورة لقمر: ﴿أَمۡ يَقُولُونَ نَحۡنُ جَمِيعٞ مُّنتَصِرٞ ۝٤٤ سَيُهۡزَمُ ٱلۡجَمۡعُ وَيُوَلُّونَ ٱلدُّبُرَ ۝٤٥ بَلِ ٱلسَّاعَةُ مَوۡعِدُهُمۡ وَٱلسَّاعَةُ أَدۡهَىٰ وَأَمَرُّ ۝٤٦﴾[2] وسورة القمر مكية، والجهاد لم يشرع إلا في السنة الثانية من الهجرة، فأين هي إذن فكرة الحرب، ومن الذي كان يجول بخاطره ان ينهزم جمع المشركين، وينتصر عليهم المسلمون وهم قلة في العدة والعدد؟ ولكنه وعد الله لا يخلف.

---

[1] سورة الروم: آية (١-٥).

[2] سورة القمر: آية (٤٤-٤٦).

روي عن عكرمة أنه قال: لما نزلت هذه الآية: ﴿سَيُهۡزَمُ ٱلۡجَمۡعُ وَيُوَلُّونَ ٱلدُّبُرَ ۝٤٥﴾[1]، قال عمر بن الخطاب أى جمع هذا الذي سيهزم؟ فلما كانت غزوة بدر رأى رسول الله (ﷺ) وهو يثب في الدرع ويقول "**سيهزم الجمع ويولون الدبر**" فعرف عمر تأويلها[2]، **وروي عن ابن عباس:** كان بين نزول هذه الآية وبين بدر سبع سنين.

ث.**التنبؤ بإظهار الإسلام على جميع الأديان:** وذلك في قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِيٓ أَرۡسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلۡهُدَىٰ وَدِينِ ٱلۡحَقِّ لِيُظۡهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوۡ كَرِهَ ٱلۡمُشۡرِكُونَ ۝٣٣﴾.[3]

وكذلك التنبؤ بالمستقبل الباسم الذي سيكون للمؤمنين وذلك في قوله تعالي: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمۡ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسۡتَخۡلِفَنَّهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ كَمَا ٱسۡتَخۡلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمۡ دِينَهُمُ ٱلَّذِي ٱرۡتَضَىٰ لَهُمۡ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعۡدِ خَوۡفِهِمۡ أَمۡنٗاۚ﴾[4]

وقد تحقق هذا الوعد الإلهي فأظهر الله الإسلام على جميع الأديان ومكن للمسلمين في الأرض في حياة النبي (ﷺ) حتى استولوا على جميع البلاد العربية، ولم يبق جزء منها إلا دان للمسلمين بالطاعة ومن لم يدخل في الإسلام دخل في ذمة المسلمين، وخضع لسلطانهم، ودفع الجزية لهم، ثم سار اصحابه من بعده إلى أرض كسرى وأرض هرقل، فأزالوا دولة الفرس، ودولة الرومان، ولم يمض قرن من الزمان حتى اتسعت رقعة الدولة الإسلامية، فصارت تمتد من بحر الظلمات في المغرب إلى تخوم الصين في المشرق، فتحقق بذلك الوعد الكريم، وكان وعد الله مفعولا.

---

[1] سورة القمر: آية (٤٤).

[2] الكشاف: ص٤٤٠، الجزء الرابع.

[3] سورة التوبة: آية (٣٣).

[4] سورة النور: آية (٥٥).

وكل هذه –وأمثالها في القرآن كثير– أخبار عن المستقبل وقد تحققت جميعها، وهذا أمر خارق للعادة فكان وجها من وجوه الإعجاز لأن مثله لا يتفق إلا بإخبار من عند الله جل وعلا، ولا يغيب عن بالنا أن جميع القصص التي جاء في القرآن الكريم هو من باب الإخبار عن غيوب الماضي الذي أطلع الله رسوله الكريم عليه، وما كان له علم بها، ولهذا ذكر الله جل ثناؤه قصة نوح ثم أعقبها بهذه الآية الكريمة وهي قوله تعالى: ﴿تِلْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهَآ إِلَيْكَ ۖ مَا كُنتَ تَعْلَمُهَآ أَنتَ وَلَا قَوْمُكَ مِن قَبْلِ هَٰذَا ۛ فَٱصْبِرْ ۖ إِنَّ ٱلْعَٰقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٤٩﴾﴾.[1]

والوجه السادس من وجوه إعجاز القرآن الكريم تلك الإشارات الدقيقة إلى بعض العلوم الكونية التي سبق إليها القرآن قبل أن يكتشفها العلم الحديث، ثم عدم تعارضه مع ما يكشفه العلم من نظريات علمية حديثة، وقد أشار القرآن الكريم إلى هذه الناحية من نواحي الاعجاز بقوله جل شأنه: ﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ۗ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿٥٣﴾﴾.[2]

ومع اعتقادنا بأن القرآن العظيم ليس كتاب طبيعة أو هندسة أو فيزياء وإنما هو كتاب (هداية وإرشاد) وكتاب (تشريع وإصلاح) ولكن مع ذلك لم تخل آياته من الإشارات الدقيقة، والحقائق الخفية، إلى بعض المسائل الطبيعية، والطبية، والجغرافية، مما يدل على إعجاز القرآن وكونه وحيا من عند الله، فمن المقطوع به أن محمدا (ﷺ) كان أميا لا يقرأ ولا يكتب، ومع ذلك فإن النظريات العلمية التي أشار إليها القران لم تكن معلومة في عصره، ولم يكتشف العلم أسرارها إلا منذ زمن قريب، وذلك من أصدق البراهين على أن هذا القرآن ليس من تأليف محمداً –كما يزعم بعض المستشرقين– إنما هو وحي من الله، أنزله على قلب

---

[1] سورة هود: آية (٤٩).

[2] سورة فصلت: آية (٥٣).

سيد المرسلين، بلسان عربي متين، وسنذكر بعض هذه الحقائق العلمية على سبيل المثال لا الحصر:

أولا: وحدة الكون:

أظهر النظريات العلمية الحديثة تقول: إن الأرض كانت جزءاً من المجموعة الشمسية ثم انفصلت عنها وتبردت وأصبحت صالحة لسكنى الإنسان، ويبرهنون على صحة هذه النظرية بوجود البراكين والمواد الملتهبة في باطن الأرض، وقذف الأرض بين حين وحين بهذه الحمم من المواد البركانية الملتهبة .. الخ.

هذه النظرية الحديثة تتفق مع ما أشار إليه القرآن الكريم في قوله جل ثناؤه: ﴿أَوَلَمْ يَرَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا[1] فَفَتَقْنَٰهُمَاۖ[2] وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَىْءٍ حَىٍّۖ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٠﴾﴾[3].

يقول الأستاذ (طبارة)[4]: هذه معجزة من معجزات القرآن يؤيدها العلم الحديث الذي قرر أن الكون كان شيئاً واحداً متصلاً من غاز ثم انقسم إلى سدائم، وعالمنا الشمسي كان نتيجة تلك الانقسامات .. أما الشطر الثاني من الآية: : ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَىْءٍ حَىٍّۖ﴾ فهو من أبلغ ما جاء في تقرير حقيقة علمية أدرك العلماء سرها.

فمعظم العمليات الكيماوية تحتاج إلى الماء، وهو العنصر الأساسي لاستمرار الحياة لجميع الكائنات والنباتات وللماء خواص أخرى تدل على أن مبدع الكون قد صممه بما يحقق صالح مخلوقاته والماء يمتص كميات كبيرة من الأكسيجين عندما تكون درجة حرارته

---

(١) الرتق: الضم والالتحام.

(٢) الفتق: الفصل بين الشيئين.

(٣) سورة الأنبياء: آية (٣٠).

(٤) في كتابه (روح الدين الإسلامي).

منخفضة، وعندما يتجمد تنطلق منه كميات كبيرة من الحرارة تساعد الأحياء التي تعيش في البحار من أسماك وغيرها، فما أعجب حكمة القرآن، الذي يبين بكلمات جليلة سر الحياة؟!

ثانيا: نشأة الكون:

يقول العالم الفلكي (جينز): (إن مادة الكون بدأت غازاً منتشرا خلال الفضاء بانتظام، وان السدائم (المجموعات الفلكية) خلقت من تكاثف هذا الغاز).

ويقوب الدكتور (جامبو): إن الكون في بدء نشأته كان مملوءاً بغاز موزع توزيعاً منتظماً ومنه حدثت عمليات.

هذه النظرية نجد لها في القرآن الكريم ما يؤيدها –ولولا أن القرآن أخبر عن ذلك لاستبعدنا هذه النظرية– يقول تعالى: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ ﴿١١﴾﴾.[1] فالقرآن صور مصدر خلق هذا الكون (بالدخان) وهو الشيء الذي يفهمه العرب من الأشياء الملموسة، أيكون في مقدور أمّي –منذ أربعة عشر قرناً– أن يدرك هذا في وقت كان الناس لا يعرفون شيئاً عن هذا الكون وخفاياه؟!

ثالثا: تقسيم الذرة:

ظل الاعتقاد السائد حتى القرن التاسع عشر أن الذرة هي أصغر جزء يمكن أن يوجد في عنصر من العاصر، وأنها غير قابلة للتجزئة لأنها الجزء الذي لا يتجزأ، وقد مضت قرون على هذا الاعتقاد، ومنذ عشرات السنين الماضية حول العلماء اهتمامهم إلى مشكلة (الذرة) فأمكنهم تجزئتها وتقسيمها، وقد وجدوا أنها تحتوي على الدقائق الآتية: (١) البروتون،

[1] سورة فصلت: آية (١١).

(٢) النيترون، (٣) الإلكترون، وبواسطة هذه التجزئة اخترعوا القنبلة الذرية، والقنبلة الهيدروجينية، ونعوذ بالله من قيام الساعة ومن شر إبليس اللعين.

قوله تعالى عند الإخبار عن الذرة: ﴿وَمَا يَعۡزُبُ[١] عَن رَّبِّكَ مِن مِّثۡقَالِ ذَرَّةٖ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ وَلَآ أَصۡغَرَ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكۡبَرَ إِلَّا فِي كِتَٰبٖ مُّبِينٖ ٦١﴾.[٢]، فكلمة (**أصغر**) من الذرة في الآية القرآنية تصريح جلي بإمكان تجزئتها، وفي قوله (ولا في السماء) بيان بأن خواص الذرات في الأرض هي نفس خواص الذرات الموجودة في الشمس والنجوم والكواكب، فهل درس محمد خواص الذرة وأمكنه تجزئتها والوقوف على خواصها في الأرض والسماء؟ إنها لدليل قوي على أن القرآن وحي إلهي.

رابعا: أغشية الجنين:

ثبت علمياً أن الجنين في بطن أمه محاط بثلاثة أغشية، وهذه الأغشية لا تظهر إلا بالتشريح الدقيق، وتظهر بالعين المجددة كأنها غشاء واحد، وهذه الأغشية هي التي تسمى (الغشاء المنباري) و(الخوربون) و(اللفائفي) هذا ما أثبته الطب الحديث، وقد جاء القرآن الكريم مؤيداً هذه الحقيقة العلمية، وذلك في سورة الزمر في قوله جل وعلا: ﴿يَخۡلُقُكُمۡ فِي بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمۡ خَلۡقٗا مِّنۢ بَعۡدِ خَلۡقٖ فِي ظُلُمَٰتٖ ثَلَٰثٗۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمۡ لَهُ ٱلۡمُلۡكُۖ﴾[٣]، ففي هذه الآية معجزة علمية للقرآن، فقد أخبر أن الجنين له ثلاثة أغشية أسمداها (ظلمات) لأن الغشاء حاجز وحجاب يحجز عنه النور والضياء، وهي في العلم الحديث ثلاثة أغشية.

---

[١] يعزب: أي يغيب ويخفي.

[٢] سورة يونس: آية (٦١).

[٣] سورة الزمر: آية (٦).

خامسا: التلقيح بواسطة الرياح:

أثبت العلم الحديث أن الهواء ينقل الأعضاء المذكرة إلى المؤنثة في النخيل والتبن وغيرها من الأشجار المثمرة فيكون التلقيح بواسطه الرياح[1] والهواء، وهذه الناحية العلمية تحدث عنها القران الكريم في قوله جل ثناؤه: ﴿وَأَرْسَلْنَا ٱلرِّيَٰحَ لَوَٰقِحَ فَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَسْقَيْنَٰكُمُوهُ وَمَآ أَنتُمْ لَهُۥ بِخَٰزِنِينَ ﴿٢٢﴾﴾[2]، وهذا سبق للقرآن الكريم بالحقائق العلمية الثابتة مما يدل على صدق النبوة.

الوجه السابع من وجوه الإعجاز في القرآن الكريم (الوفاء بالوعد) في كل ما أخبر عنه، وفى كل ما وعد الله سبحانه عباده به، وهذا الوعد ينقسم إلى قسمين:

أ. وعد مطلق. ب. وعد مقيد.

فالوعد المطلق كوعده بنصر رسوله، وإخراج الذين أخرجوه من وطنه، ونصر المؤمنين على الكافرين، وقد تحقق ذلك كله في قوله جل وعلا: ﴿ إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ﴿١﴾ لِّيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا ﴿٢﴾ وَيَنصُرَكَ ٱللَّهُ نَصْرًا عَزِيزًا ﴿٣﴾﴾[3]، وقد تحقق هذا النصر بفتح مكة، وبدخول الناس في الإسلام أفواجاً، وبذلك تمت النعمة على سيد الأنام محمد (ﷺ) وأقر الله عيه بنصره على أعدائه: ﴿ إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللَّهِ وَٱلْفَتْحُ ﴿١﴾ وَرَأَيْتَ ٱلنَّاسَ يَدْخُلُونَ فِى دِينِ ٱللَّهِ أَفْوَاجًا ﴿٢﴾ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَٱسْتَغْفِرْهُ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابًۢا ﴿٣﴾﴾[4]،

---

[1] يقول المستشرق المستر(أجنيري) الأستاذ في مدرسة (أكسفورد) في القرن الماضي: إن اصحاب الآبل قد عرفوا أن الريح تلقح الاشجار والثمار قبل أن يعلمها اهل أوروبا بثلاثة عشر قرنا، يشير بذلك إلى أن هذا مما سبق إليه القرآن والفضل ما شهدت به الأعداء.

[2] سورة الحجر: آية (٢٢).

[3] سورة الفتح: آية (١-٣).

[4] سورة النصر: آية (١-٣).

وصدق الله وعده بنصرته لأنبيائه وأوليائه: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ ٱلْأَشْهَٰدُ ﴿٥١﴾﴾[1]، ومن الوعد المطلق قوله جل ثناؤه: ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٧﴾﴾[2]، وقد تحقق نصر المؤمنين فى مواطن عديدة (فى بدر) وغيرها من المعارك العظيمة التي شهدها تاريخ الإسلام، اقرأ قوله تعالى:﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٢٣﴾﴾.[3] ومن الوعد المطلق قوله سبحانه: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾[4]، وقد تحقق الوعد فانتصر المؤمنون حتى فتحوا مشارق الأرض ومغاربها، وسارت جيوشهم حتى يلغت أقاصي المعمورة.

أما الوعد المقيد فهو ما كان فيه شرط، كشرط التقوى، وشرط الصبر، وشرط نصرة دين الله وما شابه ذلك، قال تعالي: ﴿إِن تَنصُرُواْ ٱللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ ﴿٧﴾﴾[5]، وقال تعالي: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ﴿٢﴾ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾.[6]، وقال تعالي: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مِنْ أَمْرِهِۦ يُسْرًا ﴿٤﴾﴾.[7] ، وقد وعد الله المؤمنين بالنصر بشرط الصبر، كما قال تعالي: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ حَرِّضِ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَى ٱلْقِتَالِ إِن يَكُن مِّنكُمْ عِشْرُونَ صَٰبِرُونَ يَغْلِبُواْ مِاْئَتَيْنِ وَإِن يَكُن مِّنكُم مِّاْئَةٌ يَغْلِبُوٓاْ أَلْفًا مِّنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ ﴿٦٥﴾﴾[8].

---

[1] سورة غافر: آية (٥١).

[2] سورة الروم: آية (٤٧).

[3] سورة آل عمران: آية (١٢٣).

[4] سورة النور: آية (٥٥).

[5] سورة محمد: آية (٧).

[6] سورة الطلاق: آية (٢-٣).

[7] سورة الطلاق: آية (٤).

[8] سورة الأنفال: آية (٦٥).

الوجه الثامن من وجوه إعجاز القرآن هذه العلوم والمعارف التي زخر بها القرآن الكريم، ان القرآن قد جاء بالعلوم المتنوعة والمعارف المتعددة، في العقائد، والعبادات والتشريع والتنظيم، وفي الأخلاق والمعاملات، وفي حقول شتي: في التربية والتعليم، وفي السياسة والاقتصاد، وفي الفلسفة والاجتماع، وكذلك في القصص والأخبار، وفي أصول المناظرة والجدل، ولا شك أن هذا الوجه من أظهر وجوه الإعجاز، فكيف يستطيع رجل أمي، لم يقرا ولم يكتب ولا نشأ في بلد علم وتشريع، ولا في مدينة ذات حضارة ومدنية أن يأتي بمثل ما في القرآن من هذه العلوم والمعارف تحقيقاً وكمالاً، مؤيدا بالحجج والبراهين بعد أن قضى معظم حياته لا يعرف شيئاً عنهاً ولم ينطق بقاعدة أو أصل منها، ولا حكم بفرع من فروعها إلا أن يكون ذلك وحيا من الله تعالى؟!

الوجه التاسع من وجوه إعجاز القرآن (وفاؤه بحاجات البشر) وهذا الوجه من وجوه الإعجاز ظاهر جلي، يدركه كل متأمل في شريعة الإسلام، فقد جاء القرآن. الكريم بهدايات تامة كاملة، شاملة واسعة، تفي بحاجات البشر في كل زمان ومكان ويتجلى ذلك إذا استعرضت المقاصد النبيلة التي رمى إليها القرآن في هدايته وإرشاده وهي بإيجاز:

١. إصلاح الأفراد. ٢. إصلاح المجتمعات.

٣. إصلاح العقائد. ٤.إصلاح العبادات.

٥. إصلاح الأخلاق. ٦. إصلاح الحكم والسياسة.

٧. إصلاح الشئون المالية. ٨. إصلاح الشئون الحربية.

٩. إصلاح الثقافة العلمية. ١٠. تحرير العقول والأفكار من الخرافات.

الوجه العاشر من وجوه إعجاز القرآن: ذلك التأثير البالغ الذي أحدثه في قلوب أتباعه وأعدائه، حتى لقد بلغ من شدة التأثير أن المشركين أنفسهم كانوا يخرجون في جنح الليل يستمعون إلى تلاوة القرآن من المسلمين، وحتى تواصوا فيما بينهم ألا يستمعوا إلى القرآن، وأن يرفعوا أصواتهم بالضجيج حينما يتلوه محمد لئلا يؤمن به الناس: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَا تَسۡمَعُواْ لِهَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ وَٱلۡغَوۡاْ فِيهِ لَعَلَّكُمۡ تَغۡلِبُونَ ٢٦﴾.[1]

ولقد بلغ من تأثير القرآن في القلوب أن يفيء إلى ظلاله أشد الناس عداوة له، وأعظمهم عناداً، فيسلم كثير من هؤلاء الزعماء، وعلى رأسهم (عمر بن الخطاب) و(سعد بن معاذ) و(أسيد بن حضير) وغيرهم من القادة والرؤساء.

الوجه الحادي عشر من وجوه الإعجاز في القرآن الكريم (سلامته من التناقض والتعارض خلافاً لجميع كلام البشر)، وصدق الله حيث يقول: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلۡقُرۡءَانَۚ وَلَوۡ كَانَ مِنۡ عِندِ غَيۡرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ ٱخۡتِلَٰفٗا كَثِيرٗا ٨٢﴾.[2]

هذه بعض وجوه الإعجاز في القرآن الكريم .. معجزة النبي الأمي إلى العالمين في كل زمان ومكان إلى يوم يبعثون.

---

[1] سورة فصلت: آية (٢٦).

[2] سورة النساء: آية (٨٢).

الباب الثاني

علوم القرآن الكريم

الفصل الأول: المكي والمدني.

الفصل الثاني: أسباب النزول.

الفصل الثالث: المحكم والمتشابه

الفصل الرابع: الناسخ والمنسوخ.

الفصل الخامس: العام والخاص.

الفصل السادس: المطلق والمقيد .

الفصل السابع: المنطوق والمفهوم.

الفصل الثامن: قصص القرآن.

الفصل التاسع: القسم في القرآن الكريم.

الفصل العاشر: المثل في القرآن الكريم.

الفصل الحادي عشر: آداب حملة القرآن الكريم.

الفصل الأول: المكي والمدني

المبحث الأول: عناية العلماء بالمكي والمدني وأمثلة ذلك وفوائده

عنى العلماء بتحقيق المكي والمدني عناية فائقة، فتتبع القرآن آية آية، وسورة سورة، لترتيبها وفق نزولها، مراعين في ذلك الزمان والمكان والخطاب، لا يكتفون بزمن النزول، ولا بمكانه، بل يجمعون بين الزمان والمكان والخطاب، وهو تحديد دقيق يعطي للباحث المنصف صورة للتحقيق العلمي في علم المكي والمدني، وهو شأن علمائنا في تناولهم لمباحث القرآن الأخرى.

إنه جهد كبير أن يتبع الباحث منازل الوحي في جميع مراحله، ويتناول آيات القرآن الكريم، فيعين وقت نزولها، ويحدد مكانه، ويضم إلى ذلك الضوابط القياسية لأسلوب الخطاب فيها، أهو من قبيل المكي أم من قبيل المدني؟ مستعينا بموضوع السورة أو الآية، أهو من الموضوعات التي ارتكزت عليها الدعوة الإسلامية في مكة أم من الموضوعات التي ارتكزت عليها الدعوة في المدية؟

وإذا اشتبه الأمر على الباحث لتوافر الدلائل المختلفة رجح بينها فجعل بعضها شبيها بما نزل في مكة، وبعضها شبيهاً بما نزل في المدينة.

وإذا كانت الآيات نزلت في مكان ثم حملها أحد من الصحابة فور زولها لإبلاغها في مكان آخر، ضبط العلماء هذا كذلك، فقالوا: ما حمل من مكة إلي المدينة، وما حمل من المدينة إلى مكة.

قال أبو القاسم الحسن بن محمد بن حبيب النيسابوري في كتاب التنبيه على فضل علوم القرآن: "من أشرف علوم القرآن علم نزوله وجهاته، وترتيب ما نزل بمكة والمدينة، وما نزل بمكه وحكمه مدني، وما نزل بالمدينة وحكمه مكي، وما نزل بمكة في أهل المدينة، وما

نزل بالمدينة في أهل مكن، وما يشبه نرول المكي في المدني، وما يشبه نزول المدني في المكي، وما نزل بالجحفة، وما نزل ببيت المقدس، وما نزل بالطائف، وما نزل بالحديبية، وما نزل ليلا، وما نزل نهارا، وما نزل مشيعا[1]، وما نزل مفرداً، والآيات المدنيات من السور المكية، والآيات المكيات في السور المدنية، وما حمل من مكة إلى المدينة، وما حمل من المدينة إلى مكة، وما حمل من المدينة إلى ارض الحبشة، وما نزل مجملاً، وما نزل مفسرا، وما إختلفوا فيه، فقال بعضهم مدني وبعضهم مكي، فهذه خمسة وعشرون وجهاً من لم يعرفها ويميز بينها لم يحل له أن يتكلم في كتاب الله تعالى"[2].

وحرص العلماء على الدقة، فرتبوا السور حسب منازلها سورة بعد سورة، وقالوا سورة كذا نزلت بعد سورة كذا، وازدادوا حرصا في الاستقصاء، ففرقوا بين ما نزل ليلا وما نزل نهارا، وما نزل صيفا وما نزل شتاء، وما نزل في الحضر وما نزل في السفر.

وأهم الأنواع التي يتدارسها العلماء في هذا المبحث:

١. ما نزل بمكة.
٢. ما نزل بالمدينة.
٣. ما اختلف فيه.
٤. الآيات المكية في السور المدنية.
٥. الآيات المدنية في السور المكية.
٦. ما نزل بمكة وحكمه مدني.
٧. ما نزل بالمدينة وحكمه مكي.
٨. ما يشبه نزول المكي في المدني.
٩. ما يشبه نزول المدني في المكي.
١٠. ما حمل من مكة إلى المدينة.
١١. ما حمل من المدينة إلى مكة.
١٢. ما نزل ليلاً وما نزل نهاراً.

---

[1] كالذي روى في بعض السور والآيات مثل سورة الأنعام، وسورة الفاتحة، وآية الكرسي.

[2] أنظر: "الاتقان في علوم القرآن" للسيوطي، ج١، ص٨.

١٣. ما نزل صيفاً وما نزل شتاءً. ١٤. ما نزل في الحصر وما نزل في السفر.

فهذه أنواع أساسية، يرتكز محورها على المكي والمدني، ولذا سمي هذا بعلم المكي والمدني:

أمثلة:

١، ٢، ٣. أقرب ما قيل في تعداد السور المكية والمدنية إلى الصحة، أن المدني عشرون سورة:

١. البقرة.	٢. آل عمران.	٣. النساء.	٤. المادة.
٥. الأنفال.	٦. التوبة.	٧. النور.	٨. الأحزاب.
٩. محمد.	١٠. الفتح.	١١. الحجرات.	١٢. الحديد.
١٣. المجادلة.	١٤. الحشر.	١٥. الممتحنة.	١٦. الجمعة.
١٧. المنافقون.	١٨. الطلاق.	١٩. التحريم.	٢٠. النصر.

وأن المختلف فيه اثنتا عشر سورة:

١. الفاتحة.	٢. الرعد.	٣. الرحمن.	٤. الصف.
٥. التغابن.	٦. المطففين.	٧. القدر.	٨. البينة.
٩. الزلزلة.	١٠. الإخلاص.	١١. الفلق.	١٢. الناس.

وأن ما سوى ذلك مكي، وهو اثنتان وثمانون سورة، فيكون مجموع سور القرآن مائة وأربع عشرة سورة.

٤. **الآيات المكية في السور المدنية:** لا يقصد وصف السورة بأنها مكية أو مدنية أنها بأجمعها كذلك، فقد يكون في المكية بعض آيات مدنية، وفي المدنية بعض آيات مكية، ولكنه وصف أغلبي حسب أكثر آياتها، ولذا يأتي في التسمية: سورة كذا مكية إلا آية كذا فإنها مدنية، وسورة كذا مدنية إلا آية كذا فإنها مكية، كما نجد ذلك في المصاحف.

ومن أمثلة الآيات المكية في السورة المدنية "سورة الأنفال" مدنية، واستثنى منها كثير من العلماء قوله تعالي: ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَۚ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ ٱللَّهُۖ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ ۝٣٠﴾.[١]، قال مقاتل فى هذه الآية: نزلت بمكة، وظاهرها كذلك، لأنها تضمنت ما كان من المشركين فى دار الندوة عند تآمرهم على رسول الله (ﷺ) قبل الهجرة، واستثنى بعضهم كذلك ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ حَسْبُكَ ٱللَّهُ وَمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۝٦٤﴾[٢]، لما أخرجه البزار عن ابن عباس أنها نزلت لما أسلم عمر بن الخطاب (رضي الله عنه).

٥. **الآيات المدنية في السور المكية:** ومن أمثلة الآيات المدنية في السور المكية "سورة الأنعام" قال ابن عباس نزلت بمكة مرة واحدة، فهي مكية إلا ثلاث منها نزلت بالمدينة ﴿۞قُلْ تَعَالَوْاْ أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْۖ ... إلى تمام الآيات﴾[٣]،و"سورة الحج" مكية سوى ثلاث آيات نزلت بالمدينة، من أول قوله تعالى: ﴿۞هَٰذَانِ خَصْمَانِ ٱخْتَصَمُواْ فِي رَبِّهِمْۖ .....﴾.[٤]

٦. **ما نزل بمكة وحكمه مدني،** ويمثلون له بقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ

---

[١] سورة الأنفال: آية (٣٠).

[٢] سورة الأنفال: آية (٦٤).

[٣] سورة الأنعام: (١٥١-١٥٣).

[٤] سورة الحج: آية (١٩-٢١).

خَبِيرٌ ﴿١٣﴾﴾[1]، فإنها نزلت بمكة يوم الفتح، وهي مدنية لأنها نزلت بعد الهجرة، والخطاب فيها عام، ومثل هذا لا يسميه العلماء مكيا، كما لا يسمونه مدنيا على وجه التعيين، بل يقولون فيه: ما نزل بمكة وحكمه مدني.

٧. **ما نزل بالمدينة وحكمه مكى:** ويمثلون له بسورة الممتحنة، فإنها نزلت بالمدينة، فهي مدنية باعتبار المكان، ولكن الخطاب في ثناياها توجه إلى مشركى أهل مكة.. ومثل هذا صدر سورة براءة نزل بالمدينة، والخطاب فيه لمشركي أهل مكة.

٨. **ما يشبه نزول المكي في المدني:** ويعني العلماء به ما كان في السور المدنية من آيات جاء أسلوبها في خائصه وطابعه العام على نمط السور المكية، ومن أمثلته قوله تعالى في سورة الأنفال، وهي مدنية: ﴿وَإِذْ قَالُواْ ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ أَوِ ٱئْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣٢﴾﴾[2]، فإن استعجال المشركين للعذاب كان بمكة.

٩. **ما يشبه نزول المدني في المكي:** ويعني العلماء به ما يقابل النوع السابق، ويمثلون له بقوله تعالى في سورة النجم: ﴿ٱلَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلْإِثْمِ وَٱلْفَوَٰحِشَ إِلَّا ٱللَّمَمَ﴾.[3]، قال السيوطي: فإن الفواحش كل ذنب فيه حد، والكبائر كل ذنب عاقبته النار، واللمم ما ببن الحدين من الذنوب، ولم يكن بمكة حد ولا نحوه.[4]

١٠. **ما حمل من مكة إلى المدينة:** ومن أمثلته سورة ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى ﴿١﴾﴾.[5]، أخرج البخاري عن البراء بن عازب قال: أول من قدم علينا من أصحاب النبي (ﷺ): مصعب

---

[1] سورة الحجرات: آية (١٣).

[2] سورة الأنفال: آية (٣٢).

[3] سورة النجم: آية (٥).

[4] سورة الأعلى: آية (١).

[5] الإتقان: ج١، ص١٨.

بن عمير، وابن أم مكتوم، فجعلا يقرئاننا القرآن، ثم جاء عمار وبلال وسعد، ثم جاء عمر بن الخطاب في عشرين، ثم جاء النبي (ﷺ)، فما رأيت أهل المدينة فرحوا بشيء فرحهم به، فما جاء حتى قرأت ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى ۝١﴾، في سور مثلها "وهذا المعنى يصدق على كل ما حمله المهاجرون من القرآن وعلموه الأنصار.

١١. ما حمل من المدينة إلى مكة: ومن أمثلته أول سورة براءة حيث أمر رسول الله (ﷺ) أبا بكر على الحج في العام التاسع، فلما نزل صدر سورة براءة حمله رسول الله (ﷺ) عليّ بن ابي طالب ليلتحق بأبي بكر حتى يبلغ المشركين به، فأذن فيهم بالآيات وأبلغهم ألا يحج بعد العام مشرك.

١٢. ما نزل ليلاً وما نزل نهاراً: أكثر القرآن نزل نهاراً، أما ما نزل بالليل فقد تتبعه أبةو القاسم الحسن بن محمد بن حبيب النيسابورى واستخرج له أمثلة منها: أواخر آل عمران، أخرج ابن حبان في صحيحه، وابن المنذر، وابن مردويه، وابن ابي الدنيا، عن عائشة رضى الله عنها: أن بلالاً أتى النبي (ﷺ) يؤذنه لصلاة الصبح فوجده يبكي، فقال: يارسول الله ما يبكيك؟ قال: وما يمنعني أن أبكي وقد أنزل علي هذه الليلة: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ ... لِّأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ ۝١٩٠﴾، ثم قال: ويل لمن قرأها ولم يتفكر "ومنها: آية الثلاثة الذى خلفوا، ففي الصحيحين من حديث كعب" فأنزل الله توبتنا حين بقي الثلث الأخير من الليل"[1]

---

[1] ﴿لَّقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِيِّ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ ٱلْعُسْرَةِ مِنۢ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ إِنَّهُۥ بِهِمْ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ۝١١٧ وَعَلَى ٱلثَّلَٰثَةِ ٱلَّذِينَ خُلِّفُواْ حَتَّىٰٓ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ وَظَنُّوٓاْ أَن لَّا مَلْجَأَ مِنَ ٱللَّهِ إِلَّآ إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ۝١١٨﴾. وهم الذين قبل الله عذرهم في التخلف بغزوة تبوك.

ومنها: أول سورة الفتح، ففي البخاري من حديث عمر "لقد نزلت على الليلة سورة هي أحب إلى مما طلعت عليه الشمس، فقرأ ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ۝١﴾.

١٣. ما نزل صيفاً وما نزل شتاءً: ويمثل العلماء لما نزل صيفا بآية الكلالة التي في آخر سورة النساء، ففي صحيح مسلم عن عمر: ما راجعت رسول الله (ﷺ) في شيء ما راجعته في الكلالة، وما أغلظ في شيء ما أغلظ لي فيه، حتى طعن بإصبعه في صدري وقال يا عمر: ألا تكفيك اية الصيف التي في آخر سورة النساء؟[١]. ومن أمثله الآيات التي نزلت في غزوة تبوك، فإنها كانت في الصيف في شدة الحر كما في القرآن نفسه[٢].

ويمثلون للشتائى بآيات حديث الإفك في سورة النور ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ جَآءُو بِٱلْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنكُمْ....﴾. إلى قوله تعالي: ﴿لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ۝٢٦﴾.[٣]

ففي الصحيح عن عائشة "أنها نزلت في يوم شات" ومن أمثلته الآيات التي في غزوة الخندق من سورة الأحزاب حيث كانت في شدة البرد، أخرج البيهقي في دلائل النبوة عن حذيفة قال: "تفرق الناس عن رسول الله (ﷺ) ليلة الأحزاب إلا اثني عشر رجلا، فأتاني رسول الله (ﷺ) فقال: قم فانطلق إلى عسكر الأحزاب، قلت يا رسول الله: والذي بعثك بالحق ما قمت لك إلا حياء، من البرد، فأنزل الله ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذْكُرُواْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَآءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا ۝٩﴾.[٤]

---

[١] ﴿يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ ٱللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِى ٱلْكَلَـٰلَةِ ۚ﴾، النساء (١٧٦)، والكلالة كما في صريح الآية: الميت الذى لا ولد له وله مال يورث.

[٢] وقد حكى القرآن عن المنافقين قولهم ﴿وَقَالُواْ لَا تَنفِرُواْ فِى ٱلْحَرِّ﴾، التوبة (٨١)، فأمر الله رسوله أن يجيبهم ﴿قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا ۚ لَّوْ كَانُواْ يَفْقَهُونَ﴾، التوبة (٨١).

[٣] سورة النور: آية (١١-٢٦).

[٤] سورة الأحزاب: آية (٩).

١٤. ما نزل في الحضر وما نزل في السفر: أكثر القرآن نزل في الحضر، ولكن حياة الرسول (ﷺ) كانت عامرة بالجهاد والغزو في سبيل الله حيث يتنزل عليه الوحي في مسيره، وقد ذكر السيوطي لما نزل في السفر كثيراً من الأمثلة[١]. منها أول سورة الأنفال، نزلت ببدر عقب الواقعة، كما أخرجه أحمد عن سعد بن أبي وقاص، وقوله **تعالى** ﴿وَٱلَّذِينَ يَكۡنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلۡفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾[٢]، أخرج أحمد عن ثوبان أنها نزلت في بعض أسفاره (ﷺ)، وأول سورة الحج، أخرج الترمذي والحاكم عن عمران بن حصين قال: "لما نزلت على النبي (ﷺ)﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمۡۚ إِنَّ زَلۡزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَيۡءٌ عَظِيمٞ ۝١ يَوۡمَ تَرَوۡنَهَا تَذۡهَلُ كُلُّ مُرۡضِعَةٍ عَمَّآ أَرۡضَعَتۡ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمۡلٍ حَمۡلَهَا وَتَرَى ٱلنَّاسَ سُكَٰرَىٰ وَمَا هُم بِسُكَٰرَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ ٱللَّهِ شَدِيدٞ ۝٢﴾.[٣]، أنزلت عليه هذه وهو في سفر"، وسورة الفتح، أخرج الحاكم وغيره عن المسور بن مخرمة ومروان بن الحكم قالا: "نزلت سورة الفتح بين مكة والمدينة في شأن الحديبية من أولها إلى آخرها".

---

[١] الإتقان: ج١، ص١٨.

[٢] سورة التوبة: آية (٣٤).

[٣] سورة الحج: آية (١-٢).

المبحث الثاني: تعريف المكي والمدني وميزات كل منهما

اعتمد العلماء في معرفة المكي والمدني على منهجين أساسين: المنهج السماعي النقلي، والمنهج القياس الاجتهادي.

والمنهج السماعي النقلي: يستند إلى الرواية الصحيحة عن الصحابة الذين عاصروا الوحي، وشاهدوا نزوله، أو عن التابعين الذين تلقوا عن الصحابة وسمعوا منهم كيفية النزول ومواقعه وأحداثه، ومعظم ما ورد في المكي والمدني من هذا القبيل، وقد حفلت بها كتب التفسير بالمأثور، ومؤلفات أسباب النزول، ومباحث علوم القرآن ولم يرد عن رسول الله (ﷺ) شيء فى ذلك، حيث إنه ليس من الواجبات التي تجب على الآمة إلا بالقدر الذي يعرف به الناسخ والمنسوخ، قال القاضي أبو بكر بن الطيب الباقلاني في "الانتصار" إنما يرجع في معرفة المكي والمدني لحفظ الصحابة والتابعين، ولم يرد عن رسول الله (ﷺ) في ذلك قول لأنه لم يؤمر به، ولم يجعل الله علم ذلك من فرائض الأمة، وإن وجب في بعضه على أهل العلم ومعرفة تاريخ الناسخ والمنسوخ فقد يعرف ذلك بغير نص الرسول"[1].

والمنهج القياسي الاجتهادي: يستند إلى خصائص المكي وخصائص المدني، فإذا ورد في السورة المكية آية تحمل طابع التنزيل المدني أو تتضمن شيئاً من حوادثه قالوا إنها مدنية، وإذا ورد في السورة المدنية آية تحمل طابع التنزيل المكي أو تتضمن شيئاً من حوادثه قالوا إنها مكية، وإذا وجد في السورة خصائص المكي قالوا إنها مكية، وإذا وجد فيها خصائص المدني قالوا إنها مدنية، وهذا قياس اجتهادي، ولذا قالوا مثلا: كل سورة فيها قصص الأنبياء والأمم الخالية مكية، وكل سورة فيها فريضة أو حد مدنية، وهكذا، قال

[1] انظر: الاتقان: ج١، ص٩.

الجعبري: لمعرفة المكي والمدني طريقان، سماعي وقياسي"[1]، ولا شك أن السماعي يعتمد على النقل، والقياسي يعتمد على العقل، والنقل والعقل هما طريقا المعرفة السليمة والتحقيق العلمي.

مميزات المكي والمدني:

استقرأ العلماء السور المكية والسور المدنية، واستنبطوا ضوابط قياسية لكل من المكي والمدني، تبين خصائص الأسلوب والموضوعات التي يتناولها؛ وخرجوا من ذلك بقواعد ومميزات.

ضوابط المكي ومميزاته الموضوعية:

١. كل سورة فيها سجدة فهي مكية.

٢. كل سورة فيها لفظ (كلا) فهي مكية، ولم ترد إلا في النصف الأخير من القرآن، وذكرت ثلاثاً وثلاثين مرة في خمس عشرة سورة.

٣. كل سورة فيها (يا أيها الناس) وليس فيها (يا أيها الذين آمنوا) فهي مكية إلا سورة الحج ففي أواخرها (يا أيها الذين آمنوا أركعوا وأسجدوا) ومع هذا فإن كثير من العلماء يرى أن هذه الآية مكية كذلك.

٤. كل سورة فيها قصص الأنبياء والأمم الغابرة فهي مكيه سوى البقرة.

٥. كل سورة فيها قصة آدم وإبليس فهي مكية سوى البقرة كذلك.

٦. كل سورة تفتتح بحرف التهجي كـ "ألم" و"الر" و"حم" ونحو ذلك فهي مكية سوى الزهراوين: وهما البقرة وآل عمران، واختلفوا في سورة الرعد.

---

[1] انظر المصدر السابق، ج١، ص١٧.

هذا من ناحية الضوابط، أما من ناحية المميزات الموضوعية وخصائص الأسلوب فيمكن إجمالها فيما يأتي:

١. الدعوة إلى (التوحيد وعبادة الله وحده، وإثبات الرسالة، وإثبات البعث والجزاء، وذكر القيامة وهولها، والنار وعذابها، والجنة ونعيمها، ومجادلة المشركين بالبراهين العقلية والآيات الكونية.

٢. وضع الأسس العامة للتشريع والفضائل الأخلاقية التي يقوم عليها كيان المجتمع، وفضح جرائم المشركين في سفك الدماء، وأكل أموال اليتامى ظلما، ووأد البنات، وما كانوا عليه من سوء العادات.

٣. ذكر قصص الأنبياء والأمم السابقة زجراً لهم حتى يعتبروا بمصير المكذبين قبلهم، وتسلية لرسول الله (ﷺ) حتى يصبر على آذاهم ويطمئن إلى الانتصار عليهم.

٤. قصر الفواصل مع قوه الألفاظ، وايجاز العبارة، بما يصخ؛ الآذان، ويشتد قرعه على المسامع، ويصعق القلوب، ويؤكد المعنى بكثرة القسم، كقصار المفصل إلا نادرا.

ضوابط المكي ومميزاته الموضوعية:

١. كل سورة فيها فريضة أو حد فهي مدنية.

٢. كل سورة فيها ذكر المنافقين فهي مدنية سوى العنكبوت فإنها مكية.

٣. كل سورة فيها مجادلة أهل الكتاب فهي مدنية.

هذا من ناحية الضوابط، أما من ناحية المميزات الموضوعية وخصائص الأسلوب فيمكن إجمالها فيما يأتي:

١. بيان العبادات، والمعاملات، والحدود، ونظام الأسرة، والمواريث وفضيلة الجهاد والصلات الاجتماعية، والعلاقات الدولية في السلم والحرب، وقواعد الحكم، ومسائل التشريع.

٢. مخاطبة أهل الكتاب من اليهود والنصارى، ودعوتهم إلى الإسلام وبيان تحريفهم لكتب الله، وتجنيهم على الحق، واختلافهم من بعد ما جاءهم العلم بغياً بينهم.

٣. الكشف عن سلوك المنافقين، وتحليل نفسيتهم، وإزاحة الستار عن خباياهم، وبيان خطرهم على الدين.

٤. طول المقاطع والآيات في أسلوب يقرر الشريعة ويوضح أهدافها ومراميها.

المبحث الثالث: فوائد العلم بالمكي والمدني

وللعلم بالمكي والمدني فوائد أهمها:

١. **الاستعانة به في تفسير القرآن:** فإن معرفة مواقع النزول تساعد على فهم الآية وتفسيرها تفسيرا صحيحا، وان كانت العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب، ويستطيع المفسر في ضوء ذلك عند تعارض المعنى في آيتين أن يميز بين الناسخ والمنسوخ، فإن المتأخر يكون ناسخا للمتقدم.

٢. **تذوق أساليب القرآن والاستفادة منها في أسلوب الدعوة إلى الله:** فإن لكل مقام مقال، ومراعاة المقتضي الحالي من أخص معاني البلاغة، وخصائص أسلوب المكي في القرآن والمدني منه تعطي الدارس منهجاً لطرائق الخطاب في الدعوة إلى الله بما يلائم نفسية المخاطب، ويمتلك عليه لبه ومشاعره، ويعالج فيه دخيلته بالحكمة البالغة، ولكل مرحلة من مراحل الدعوة موضوعاتها وأساليب الخطاب فيها، كما يختلف الخطاب باختلاف أنماط الناس ومعتقداتهم وأحوال بيئتهم، ويبدو هذا واضحاً جلياً بأساليب القرآن المختلفة في مخاطبة المؤمنين والمشركين والمنافقين وأهل الكتاب.

٣. **الوقوف على السيرة النبوية من خلال الآيات القرآنية،** فإن تابع الوحي على رسول الله (ﷺ) ساير تاريخ الدعوة بأحداثها في العهد المكي والعهد المدني منذ بدء الوحي حتى آخر آية نزلت، والقرآن الكريم هو المرجع الأصيل لهذه السيرة الذي لا يدع مجالاً للشك فيما روى عن أهل السير موافقاً له، ويقطع دابر الخلاف عند اختلاف الروايات.

٤. **معرفة طريقة القرآن التي سلكها في تنشئة الأمة المسلمة وتربيتها**، والخطوات التي خطاها في إقامة الدولة الإسلامية حتى يكون في ذلك عبرة لدعاة الإصلاح، وقادة الفكر الإسلامي الذين يتطلعون إلى استئناف الحياة الإسلامية من جديد.

٥. **التعرف على مدي الخدمة الفائقة، والعناية البالغة التي حظي بها القرآن الكريم من المسلمين** من عهد الصحابة حتى يومنا هذا

الفصل الثاني: أسباب النزول

تمهيد:

معرفة (أسباب النزول) له أثر كبير في فهم معنى الآية الكريمة، ولهذا اعتني كثير من العلماء بمعرفة أسباب النزول، حتى أفرد له بالتصنيف جماعة من العلماء كان من أقدمهم (علي بن المديبي) شيخ البخاري رحمه الله .. ومن أشهر ما كتب في هذا الفن كتاب **(أسباب النزول)** للواحدي، كما ألف فيه شيخ الإسلام **(ابن حجر)** وألف فيه أيضاً العلامة (السيوطي) كتاباً حافلاً عظيماً سماّه (لباب النّقول في أسباب النزول).

ولمعرفة أهمية هذا النوع من علوم القرآن، والتأكد من ضرورته لفهم معاني الآيات الكريمة نستطيع أن نقول: إن بعض الآيات لا يمكن فهمها أو معرفة أحكامها إلا على ضوء سبب النزول. فمثلا قول الله تعالي: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ فَأَيْنَمَا تُوَلُّواْ فَثَمَّ وَجْهُ ٱللَّهِ﴾[1] الآية قد يفهم منها جواز التوجه في الصلاة إلى غير القبلة، وهذا الفهم خاطئ لأن استقبال القبلة شرط لصحة الصلاة، وبمعرفة سبب النزول يتضح فهم الآية، فقد نزلت هذه الآية الكريمة فيمن كان في (سفر) وأضاع القبلة فلم يعرف جهتها فإنه يجتهد ويتحرى ثم يصلي فإلي أي جهة صلي تصح صلاته، ولا تجب عليه إعادة الصلاة فيما إذا تبين له بعد الانتهاء خطأ توجهه. فالآية إذاً ليست عامة إنما هي خاصة فيمن جهل القبلة فلم يعرف جهتها.

[1] سورة البقرة: آية (١١٥).

المبحث الأول: كيف يعرف سبب النزول؟

والعلماء يعتمدون في معرفة سبب النزول على صحة الرواية عن رسول الله (ﷺ)، أو عن الصحابة، فإن إخبار الصحابي عن مثل هذا إذا كان صريحا لا يكون بالرأي، بل يكون له حكم المرفوع، قال الواحدي: "لا يحل القول في أساب نزول الكتاب إلا بالرواية والسماع ممن شاهدوا التنزيل، ووقفوا على الأسباب، وبحثوا عن علمها وجدوا في الطلب وهذا هو نهج علماء السلف، فقد كانوا يتورعون عن أن يقولوا شيئا في ذلك دون تثبت، قال "محمد بن سيرين" سألت "عبيدة" عن آية من القرآن فقال: اتق الله وقل سداداً، ذهب الذين يعلمون فيما أنزل الله من القرآن" وهو يعني الصحابة. وإذا كان هذا هو قول "ابن سيرين" من أعلام علماء التابعين تحريا للرواية، ودقة في الفصل، فإنه يدل على وجوب الوقوف عند أسباب النزول الصحيحة، ولذا فإن المعتمد من ذلك فيما روى من أقوال الصحابة ما كانت صيغته جارية مجرى المسند، بحيث تكون هذه الصيغة جازمة بأنها سبب النزول.

وذهب "**السيوطي**" إلى أن قول التابعي إذا كان صريحاً في سبب النزول فإنه يقبل، ويكون مرسلاً، إذا صح المسند إليه وكان من أئمة التفسير الذين أخذوا عن الصحابة كمجاهد وعكرمة وسعيد بن جبير، واعتضد بمرسل آخر"[1].

[1] انظر: الإتقان، ح١، ص٣١.

المبحث الثاني: سبب النزل

وسبب النزول يكون قاصر على أمرين:

١. أن تحدث حادثة فيتنزل القرآن الكريم بشأنها، وذلك كالذي روى عن ابن عباس قال: "لما نزلت ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ﴿٢١٤﴾﴾[١] خرج النبي (ﷺ) حتى صعد الصفا، فهتف: يا صباحاه (فاجتمعوا إليه، فقال: أرأيتكم لو أخبرتكم أن خيلاً تخرج بسفح هذا الجبل أكنتم مصدقي؟ قالوا: ما جربنا عليك كذباً، قال: فإني نذير لكم بين يدى عذاب شديد، فقال أبو لهب: تباً لك، إنما جمعتنا لهذا؟ ثم قام، فنزلت هذه السورة ﴿تَبَّتْ يَدَآ أَبِى لَهَبٍ وَتَبَّ ﴿١﴾﴾.[٢]

٢. أن يسأل رسول الله (ﷺ) عن شيء فيتنزل القرآن ببيان الحكم فيه، كالذي كان من خوله بنت ثعلبة عندما ظاهر[٣] منها زوجها أوس بن الصامت، فذهبت تشتكي من ذلك: عن عائشة قالت: "تبارك الذى وسع سمعه كل شيء، إني لأسمع كلام خولة بنت ثعلبة ويخفي علي بعضه وهي تشتكي زوجها إلى رسول الله (ﷺ)، وهى تقول يا رسول الله، أكل شبابي ونثرت له بطني حتى إذا كبر سنى وانقطع، ولدى ظاهر مني! اللهم إني أشكو إليك، قالت: فما برحت حتى نزل جبريل بهؤلاء الآيات ﴿قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّتِى تُجَـٰدِلُكَ فِى زَوْجِهَا﴾. وهو أوس ابن الصامت"[٤].

ولا يعني هذا أن يلتمس الإنسان لكل آية سبباً، فإن القرآن لم يكن نزوله وقفاً على الحوادث والوقائع، أو على السؤال والاستفسار، بل كان القران يتنزل ابتداء، بعقائد الإيمان،

---

[١] سورة الشعراء: آية (٢١٤).

[٢] أخرجه البخاري ومسلم وغيرهما.

[٣] الظهار: أن يقول الرجل لأمرأته: أنت علىّ كظهر أمي، واختلفوا في غير هذه الصيغة.

[٤] أخرجه ابن ماجه وابن ابي حاتم – والحاكم وصححه، وابن مردويه، والبيهقي.

وواجبات الإسلام، وشرائع الله تعالي في حياة الفرد وحياة الجماعة، قال "الجعبري": "نزل القرآن على قسمين: قسم نزل ابتداء وقسم نزل عقب واقعة أو سؤال[1].

[1] انظر الإتقان، ج١، ص٢٨.

المبحث الثالث: فوائد معرفة أسباب النزول

وقبل أن نتعرض لفوائد معرفة أسباب النزول، نقف أولاً على بعض الآراء لبعض العلماء في بيان أهمية معرفة أسباب النزول:

قال (الواحدي): لا يمكن معرفة تفسير الآية دون الوقوف على قصتها وبيان نزولها.

أخرجه البخاري ومسلم وغيرهما.

وقال (ابن دقيق العيد): بيان سبب النزول طريق قوى في فهم معاني القرآن.

وقال (ابن تيمية): معرفة سبب النزول يعين على فهم الآية، فإن العلم بالسبب يورث العلم بالمسبب.

وهكذا تظهر أهمية هذا الفن من علوم القرآن.

وأما فوائد معرفة أسباب النزول فيمكن تلخيصها فيما يلي:

أ. معرفة وجه الحكمة الباعثة على تشريع الحكم.

ب. تخصيص الحكم بالسبب (عند من يري أن العبرة بخصوص السبب).

ج. دفع توهم الحصر، فيما ظاهره الحصر.

د. معرفة اسم من نزلت فيه الآية، وتعيين المبهم فيها.

إلى غير ما هنالك من فوائد أخرى جليلة:

أمثلة على فوائد النزول:

أولاً: من فوائده: دفع الإشكال من الفهم الخطأ، حيث أشكل على (مروان بن الحاكم) معنى قوله تعالي: ﴿لَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَآ أَتَواْ وَّيُحِبُّونَ أَن يُحْمَدُواْ بِمَا لَمْ يَفْعَلُواْ فَلَا تَحْسَبَنَّهُم

﴿بِمَفَازَةٍ مِّنَ ٱلْعَذَابِ﴾. الآية. فقال لخادمه: اذهب إلى ابن عباس فقل له: (لئن كان امرئ فرح بما أوتي، وأحب أن يحمد بما لم يفعل معذباً لنعذبنّ أجمعون). فبين له (ابن عباس) رضي الله عنهما ما أزال عنه الإشكال وقال له: إن الآية نزلت في أهل الكتاب –اليهود– حين سألهم النبي (ﷺ) عن شيء فكتموه اياه، وأخبروه بغيره، أروه أنهم أخبروه بما سألهم عنه، واستحمدوا بذلك إليه فنزلت الآية.[1]

ثانياً: من أمثلة فوائد النزول في دفع توهم الحصر: ما روى عن العاص رحمه الله في قوله تعالي: ﴿قُل لَّآ أَجِدُ فِي مَآ أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَىٰ طَاعِمٍ يَطْعَمُهُۥٓ إِلَّآ أَن يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَّسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خِنزِيرٍ فَإِنَّهُۥ رِجْسٌ أَوْ فِسْقًا أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ﴾[2]، الآية فقد قال ما معناه: إن الكفار لما حرموا ما أحل الله، وأحلوا ما حرم الله، وكانوا على المضادة والمحادة فجاءت الآية مناقضة لغرضهم فكأنه قال: لا حلال إلا ما حرمتموه، ولا حرام إلا ما أحللتموه، فلم يقصد حل ما وراءه وإنما القصد إثبات التحريم لا إثبات الحل، قال (إمام الحرمين): وهذا في غاية الحسن ولولا سبق الشافعي إلى ذلك لما كنا نستجير مخالفة مالك في حصر المحرمات فيما ذكرته الآية[3].

ثالثاً: ومن أمثلة فوائد سبب النزول أن نعرف اسم من نزلت فيه ليزول اللبس والإبهام فقد زعم (مروان) أنّ قوله تعالي: ﴿وَٱلَّذِي قَالَ لِوَٰلِدَيْهِ أُفٍّ لَّكُمَآ .....﴾[4] الآية انها نزلت في (عبد الرحمن بن ابي بكر) فردت عليه عائشة رضي الله عنها هذا الزعم الباطل وبينت له سبب نزولها وتفصيل القصة على ما ذكرها البخاري هي:

---

[1] رواه الشيخان.

[2] سورة الأنعام: آية (١٤٥).

[3] انظر الإتقان – للسيوطي.

[4] سورة الأحقاف: آية (١٧).

"إن مروان كان عاملا على المدينة، فأراد (معاوية) أن يستخلف (يزيد) فكتب إلى مروان بذلك، فجمع مروان الناس فخطبهم، فذكر يزيد ودعا إلى بيعته، وقال: إن أمير المؤمنين أراه الله في يزيد رأياً حسناً، وهو أن يستحلفه، فقد استخلف أبو بكر وعمر، فقال عبد الرحمن، ما هي إلا هرقلية (يعني أنها استبداد للملك كعمل ملوك الروم). فقال مروان: سنة أبي بكر وعمر، فقال عبد الرحمن: (هرقلية) .. إن أبا بكر والله ما جعلها في أحد من ولده ولا في أهل بيته، وما جعلها معنوية إلا كرامة لولده، فقال مروان خذوه فدخل بيت عائشة فلم يقدروا عيه، فقال مروان: إن هذا الذي أنزل الله فيه ﴿وَٱلَّذِى قَالَ لِوَٰلِدَيْهِ أُفٍّ لَّكُمَآ أَتَعِدَانِنِىٓ أَنْ أُخْرَجَ وَقَدْ خَلَتِ ٱلْقُرُونُ مِن قَبْلِى﴾. الآية فقالت عائشة من وراء الحجاب: ما أنزل الله فينا شيئا من القرآن، إلا أنّ الله أنزل عذري (براءتي) ولو شئت أن أسمي من نزلت فيه لسميته.

المبحث الرابع: هل يتعدد سبب النزول؟

كثيراً ما يذكر المفسرون لنزول الآية أسباباً متعددة، والمعتمد في مثل هذه الحال أن ننظر إلى العبارة التي قالوها، ونستطيع أن نستحضر ما يلي:

أولاً: أن يعبر كل منهما بقوله (نزلت هذه الآية في كذا ..) ويذكر أمراً آخر غير الذي ذكره الأول، فيحمل على أنه استنباط للحكم، وتفسير لمعني الآية، فلا منافاة بينهما لأنه ليس بسبب للنزول.

ثانياً: أن يعبّر أحدهما بقوله (نزلت الآية في كذا.) ويصرح الآخر بذكر سبب النزول، فالمعتمد هنا (التصريح) مثاله ما رواه البخاري عن (ابن عمر (رضي الله عنه)) قال: أنزلت ﴿نِسَآؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ﴾ الآية في إتيان النساء في أدبارهن، وروي مسلم في صحيحة عن (جابر) (رضي الله عنه) قال: كانت اليهود تقول: من أتي امرأته من دُبُرها في قُبُلها جاء الولد أحول فأنزل الله ﴿نِسَآؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ﴾ الآية فالمعتمد هنا الثاني وهو حديث جابر لأنه نص في السبب فهو نقل، وقول ابن عمر ليس بنص فيحمل على أنه استنباط للحكم وتفسير له.

ثالثاً: أن يذكر كل واحد سبباً صريحاً للنزول غير الآخر فيعتمد هنا الصحيح دون الضعيف. (مثاله): ما أخرجه الشيخان عن جندب قال: اشتكي النبي (ﷺ) فلم يقم ليلة أو ليلتين، فأتته امرأه فقالت: يا محمد، ما أري شيطانك إلا قد تركك فأنزل الله ﴿وَٱلضُّحَىٰ ۝١ وَٱلَّيۡلِ إِذَا سَجَىٰ ۝٢ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ۝٣﴾.

وأخرج(الطبراني): أن جرواً دخل بيت النبي (ﷺ) فدخل تحت السرير فمات، فمكث النبي أربعة أيام لا ينزل عليه الوحي، فقال: يا خولة ما حدث في بيت رسول الله (ﷺ) جبريل لا يأتيني؟ فقلت في نفسي: لو هيأت البيت وكنسته، فأهويت بالمكنسة تحت السرير فأخرجت الجرو، فجاء النبي ترعد لحيته –وكان إذا نزل عليه أخذته الرعدة– فأنزل الله:

﴿وَٱلضُّحَىٰ ۝١ وَٱلَّيۡلِ إِذَا سَجَىٰ ۝٢ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ۝٣ وَلَلۡأٓخِرَةُ خَيۡرٞ لَّكَ مِنَ ٱلۡأُولَىٰ ۝٤ وَلَسَوۡفَ يُعۡطِيكَ رَبُّكَ فَتَرۡضَىٰٓ ۝٥﴾. فنعتمد على الرواية الأولي لأنها في الصحيحين. قال (ابن حجر) في شرح البخاري قصة جبريل بسبب (الجرو) مشهورة لكن كونها سبب نزول الآية غريب، وفي إسناده من لا يعرف فالمعتمد ما في الصحيح.[1]

رابعاً: أن يستوي الإسنادان في الصحة، فنرجح أحدهما على الآخر لوجه من وجوه الترجيحات كذكر الراوي أنه حضر القصة مثلا أو نحو ذلك.

مثاله: ما أخرجه (البخاري) عن ابن مسعود قال: كنت أمشي مع النبي (ﷺ) بالمدينة وهو يتوكأ على عسيب، فمر بنفر من اليهود، فقال بعبصهم: لو سألتموه، فقالوا: حدثنا عن الروح، فقام ساعة ورفع رأسه، فعرفت أنه يوحي إليه حتى صعد الوحي ثم قال: ﴿قُلِ ٱلرُّوحُ مِنۡ أَمۡرِ رَبِّي وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلۡعِلۡمِ إِلَّا قَلِيلٗا ۝٨٥﴾.

وما أخرجه (الترمذي) وصححه عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قالت قريش لليهود أعطونا شيئاً نسأل هذا الرجل عنه؟ فقالوا: اسألوه عن الروح، فأنزل الله ﴿وَيَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِۖ﴾ الآية .. فهذه الرواية تقتضى أنها نزلت بمكة، والأولي تقتضى أنها نزلت بالمدينة، فترجح الرواية الأولي لأن (ابن مسعود) كان حاضر القصة، ثم ما رواه البخاري يرجح على ما رواه غيره.

خامساً: أن تكون كل من الروايتن صحيحة الإسناد، وأن يكون بينهما تقارب في المدة، فتنزل الآية أو الآيات بسبب الحادستين معاً، وتنتهي الى الجمع بين الروايتين.

---

[1] الإتقان، ج١، ص٣٣.

مثاله: ما أخرجه البخاري عن ابن عباس (رضي الله عنهما أن هلال بن أمية قذف امرأته عند النبي (ﷺ) بشريك بن سمحاء، فقال النبي (ﷺ) "البينة أو حد في ظهرك"، فقال يا رسول الله: إذا رأي أحدنا مع امرأته رجلاً ينطلق يلتمس البينة، فجعل النبي (ﷺ) يقول "البينة أو حد في ظهرك"

فقال: والذي بعثك بالحق إني لصادق، ولينزلن الله تعالى ما يبرئ ظهري من الحد، فنزل جبريل، وأنزل الله عليه ﴿وَٱلَّذِينَ يَرۡمُونَ أَزۡوَٰجَهُمۡ﴾. حتى بلغ ﴿إِن كَانَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ٩﴾.

وما أخرجه (الشيخان) عن سهل بن سعد قال: جاء (عويمر بن نصر) إلى (عاصم بن عدي) فقال: أسأل رسول الله عن رجل وجد مع امرأته رجلا أيقتله فيقتل به أم كيف يصنع؟ فسأل (عاصم) رسول الله (ﷺ) فعاب السائل، فأخبر عاصم عويمراً، فقال: والله لآتين رسول الله فلأسألنه، فأتاه فقال (ﷺ): إنه قد أنزل فيك وفي صاحبك قرآن وتلا الآية الكريمة ﴿وَٱلَّذِينَ يَرۡمُونَ أَزۡوَٰجَهُمۡ وَلَمۡ يَكُن لَّهُمۡ شُهَدَآءُ إِلَّآ أَنفُسُهُمۡ﴾الآية.

وطريق الجمع بينهما أن نقول: إن أول من وقع له ذلك (هلال) وصادف مجيء (عويمر) أيضا فنزلت فيهما جميعاً.

قال ابن حجر ولا مانع من تعداد الأسباب.

سادساً: أن لا يمكن الجمع بين الروايات الصحيحة، فيحمل على تعدد النزول وتكرره، لأن المدة بينهما بعيدة.

مثاله: ما روى في الصحيحين عن (المسيب) قال: لما حضرت أبا طالب الوفاة دخل عليه رسول الله وعنده أبو جهل، وعبد الله بن أبي أمية فقال؛ أي عم، قل (لا إله إلا الله) كلمة أحاج لك بها عند الله، فقال أبو جهل، وعبد الله، أترغب عن ملة عبد المطلب، فل

يزالا يكلمانه حتى قال: هو على ملة عبد المطلب، فقال النبي (ﷺ) لأستغفرن لك ما لم أنه عن ذلك فنزلت ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن يَسْتَغْفِرُواْ لِلْمُشْرِكِينَ﴾ الآية.

وما أخرجه الترمذي عن علي (رضي الله عنه) قال: سمعت رجلاً يستغفر لأبويه وهما مشركين فقلت تستغفر لأبويك وهما مشركان، فقال: أستغفر إبراهيم لأبيه وهو مشرك، فذكرت ذلك لرسول الله (ﷺ) فنزلت ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ﴾ الآية وروى أيضاً أن النبي (ﷺ) خرج يوماً إلى المقابر، فجلس إلى قبر منها فناجاه طويلا ثم بكي فقال: (ان القبر الذي جلست عنده قبر أمي، وإني استأذنت ربي في الدعاء فلم يأذن لي فأنزل علىّ ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن يَسْتَغْفِرُواْ لِلْمُشْرِكِينَ﴾ الآية. قال السيوطي: فيجمع بين هذه الأحاديث بتعدد النزول.

المبحث الخامس: هل العبرة بعموم اللفظ أم بخصوص السبب؟

اختلف علماء الأصول في مسألة دقيقة وهي: هل العبرة بعموم اللفظ أم بخصوص السبب؟ أي أنه إذا وقعت حادثة فنزلت في شأنها آية كريمة، فهل يقتصر حكم هذه الآية على تلك الحادثة أو الواقعة أو الشخص الذي نزلت فيه، أم يتعدى الحكم إلى الجميع؟

فجمهور العلماء يذهبون إلى أن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب، وهذا هو الصحيح وهناك رأي آخر بأن العبرة بخصوص السبب.

قال(السيوطي) "ومن الأدلة علي عموم اللفظ احتجاج الصحابة وغيرهم في وقائع بعموم آيات نزلت على أسباب خاصة، كنزول آية الظهار في (سلمة بن صخر) وآية اللعان في شأن (هلال بن أمية) وحد القذف في رماة عائشة، ثم تعدي الحكم إلى غيرهم لعموم اللفظ، وقد ورد عن (ابن عباس) ما يدل على اعتبار العموم، فإنه قال به في آية السرقة مع أنها نزلت في امرأة سرقت .. ثم روي عن (نجده الحنفي) قال: سألت ابن عباس عن قوله تعالي ﴿وَٱلسَّارِقُ وَٱلسَّارِقَةُ فَٱقْطَعُوٓاْ أَيْدِيَهُمَا﴾ أخاص أم عام؟ قال: بل عام. قال (ابن تيمية): قد يجئ كثيراً من هذا الباب قولهم: هذه الآية نزلت في كذا –لاسيما إن كان المذكور شخصا– كقولهم إن آية الظهار نزلت في امرأة (ثابت بن قيس) وإن آية الكلالة نزلت في (جابر بن عبد الله)، وأن قوله تعالي ﴿وَأَنِ ٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾. نزلت في بني قريظة وبني النضير، ونظائر ذلك. فالذين قالوا ذلك لم يقصدوا أن حكم الآية يختص بأولئك الأعيان دون غيرهم، فإن هذا لا يقوله مسلم ولا عاقل على الأطلاق. وقال (الزمخشري) في تفسير سورة الهمزة: يجوز أن يكون السبب خاصاً، والوعيد عاماً ليتناول كل من باشر ذلك القبيح، وليكون ذلك جارياً مجري التعريض[1] والله تعالي أعلم.

[1] انتهي بتصرف من كتاب (الإتقان في علوم القرآن).

الفصل الثالث: المحكم والمتشابه

المعني اللغوي للمحكم والمتشابه:

لهذين اللفظيين إطلاقات في اللغة، وإطلاقات في الاصطلاح. فاللغويون يستعملون مادة الإحكام في معان متعددة، لكنها مع تعددها ترجع إلى شيء واحد، هو المنع. فيقولون: أحكم الأمر أي أتقنه ومنعه عن الفساد.

وكذلك يستعملون مادة التشابه فيما يدل على المشاركة في المماثلة والمشاكلة، المؤدية إلى الالتباس غالباً. يقال: تشابها واشتبها، أي أشبه كل منهما الآخر حتى التبسا[١].

المعنى الاصطلاحي وآراء العلماء في معني المحكم والمتشابه:

يختلف العلماء في تحديد معني المحكم والمتشابه اختلافات كثيرة منها:

١. **أن المحكم:** ما عرف المراد منه بالظهور وإما بالتأويل.

أما المتشابه: فهو ما استأثر الله تعالى بعلمه، كقيام الساعة وخروج الدجال والحروف المقطعة في أوائل السور.[٢]

٢. **أن المحكم:** ما لا يحتمل إلا وجهاً واحداً من التأويل.

أما المتشابه: فهو ما احتمل أوجهاً[٣].

٣. **أن المحكم:** ما استقل بنفسه ولم يحتج الى البيان.

---

[١] راجع: مناهل العرفان في علوم القرآن – للزرقاني، ج٢، ص٢٧٠.

[٢] ينسب هذا القول إلى أهل السنة على أنه هو المختار عندهم.

[٣] ويعزي هذا الرأي إلى ابن عباس، ويجري عليه أكثر الأصوليين.

أما المتشابه: فهو الذي لا يستقل بنفسه، بل يحتاج إلى بيان، فتارة يبين بكذا، وتارة يبين بكذا لحصول الاختلاف في تأويله.[١]

٤. **أن المحكم:** هو الواضح الدلالة، الظاهر الذي لا يحتمل النسخ.

أما المتشابه: فهو الخفي الذي لا يدرك معناه عقلاً ولا نقلاً، وهو ما استأثر الله تعالي بعلمه، كقيام الساعة، والحروف المقطعة في أوائل السور.[٢]

٥. **أن المحكم:** ما كانت دلالته راجحة، وهو النص الظاهر.

أما المتشابه: فما كانت دلالته غير راجحة، وهو المجمل والمؤول والمشكل.[٣]

ونحن إذا نظرنا في هذه الآراء، لا نجد بينها تناقضاً ولا تعارضاً، بل نلاحظ بينها تشابها وتقارباً، لأن أمر الإحكام والتشابه يرجع فيما نفهم إلى وضوح المعني المراد للشارع من كلامه، والي علم وضوحه.

ويمثل العلماء للمحكم في القرآن: بناسخه، وحلاله، وحرامه، وحدوده، وفرائضه، ووعده، ووعيده.

وللمتشابه: بمنسوخه، وكيفيات أسماء الله وصفاته التي في قوله: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ٱسۡتَوَىٰ ۝٥﴾[٤]، وقوله: ﴿كُلُّ شَيۡءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجۡهَهُۥ﴾[٥]، وقوله: ﴿يَدُ ٱللَّهِ فَوۡقَ أَيۡدِيهِمۡ﴾[٦]، وقوله:

---

[١] يحكي هذا القول عند الإمام أحمد (رضي الله عنه).

[٢] قد عزا الألوسي هذا الرأي إلى الحنفية.

[٣] ويعزي هذا الرأي إلى الإمام الرازي. وأنظر مزيد من التعريفات: مناهل العرفان، ج٢، ص ص ٢٧٣ – ٢٧٧.

[٤] سورة طه: آية (٥).

[٥] سورة القصص: آية (٨٨).

[٦] سورة الفتح: آية (١٠).

﴿وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ﴾[1]، وقوله: ﴿وَجَآءَ رَبُّكَ ...﴾[2]، وقوله: ﴿وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ﴾[3]، وقوله: ﴿رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ﴾[4]، وقوله:﴿فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ﴾[5]، إلى غير ذلك، وأوائل السور المفتتحة بحروف المعجم، وحقائق اليوم الآخر، وعلم الساعة.

القرآن الكريم محكم ومتشابه:

ولقد جاء في القران الكريم ما يدل على أنه كل محكم ﴿كِتَٰبٌ أُحْكِمَتْ ءَايَٰتُهُۥ﴾.[6] وجاء فيه ما يدل على أنه كله متشابه إذ قال تعالي: ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا﴾.[7]

وجاء فيه ما يدل على أن بعضه محكم، وبعضه متشابه، إذ قال عز اسمه: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ مِنْهُ ءَايَٰتٌ مُّحْكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٌ﴾[8]

ولا تعارض بين هذه الإطلاقات الثلاثة، لأن **معني إحكامه** كله أنه منظم رصين، متقن متين، لا يتطرق اليه خلل لفظي ولا معنوي، كأنه بناء مشيد محكم يتحدى الزمن، ولا ينتابه تصدع ولا وهن. **ومعني كونه متشابهاً:** أنه يشبه بعضه بعضاً في إحكامه وحسنه وبلوغه حد الإعجاز في ألفاظه ومعانيه، حتى إنك لا تستطيع أن تفاضل بين كلماته وآياته في هذا الحسن و الإحكام والإعجاز، كأنه حلقة مفرغة لا يدري أين أطرافها.

---

[1] سورة الأنعام: آية (١٨).

[2] سورة الفجر: آية (٢٢).

[3] سورة الفتح: آية (٦).

[4] سورة البينة: آية (٨).

[5] سورة آل عمران: آية (٣١).

[6] سورة هود: آية (١).

[7] سورة الزمر: آية (٢٣).

[8] سورة آل عمران: آية (٧).

وأما أن بعضه محكم وبعضه متشابه: فمعناه أن من القرآن ما اتضحت دلالته على مراد الله تعالى منه، ومنه ما خفيت دلالته على هذا المراد الكريم. فالأول هو المحكم، والثاني هو المتشابه على خلاف بين العلماء.

هل المتشابه مما يمكن معرفته؟

اختلف العلماء في ذلك على قولين:

الأول: إنه يمكن الاطلاع علي علم المتشابه للراسخين في العلم الذين يعلمون تأويله، واختار هذا القول الإمام النووي، فقال في (شرح مسلم): إنه الأصح، لأنه يبعد أن يخاطب الله عباده بما لا سبيل لأحد من الخلق معرفته.

ويبدو أنه لابد من بقاء بعض المتشابه الذي لا يمكن للناس الاطلاع على علمه، والذي يبقي تأويله مختصاً بالله تعالي.

الثاني: إنه لا يمكن لأحد الاطلاع على علمه، ولا يعلمه إلا الله، وأما الراسخون في العلم فإنهم يقولون: آمنا به كل من ربنا.

وأيد السيوطي هذا القول بأنه قول أكثر الصحابة والتابعيين.

المبحث الثاني: أنواع المتشابهات

أفاض العلماء في ذكر أنواع المتشابهات، دون المحكم، لأن الموضوع شائك بالنسبة إلى المتشابه، فذكروا أن المتشابه ثلاثة أنواع:

النوع الأول: ما لا يستطيع البشر جميعاً أن يصلوا إليه، كالعلم بذات الله وحقائق صفاته، وكالعلم بوقت القيامة ونحوه من الغيوب التي أستأثر الله تعالي بها: ﴿وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ﴾[1]، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِى نَفْسٌۢ بِأَىِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾[2].

النوع الثاني: ما يستطيع كل إنسان أن يعرفه عن طريق البحث والدرس، كالمتشابهات التي نشأ التشابه فيها من الإجمال والبسط والترتيب.

النوع الثالث: ما يعلمه خواص العلماء دون عامتهم، ولذلك أمثلة كثيرة من المعاني العالية التي تفيض على قلوب أهل الصفاء والاجتهاد عند تدبرهم بكتاب الله.

قال الراغب: "المتشابه على ثلاثة أضرب: ضرب لا سبيل إلى الوقوف عليه، كوقت الساعة، وخروج الدابة، ونحو ذلك، وضرب للإنسان سبيل إلي معرفته كالألفاظ الغربية والأحكام المغلقة وضرب متردد بين الأمرين يختص به بعض الراسخين في العلم ويخفي على من دونهم. وهو المشار بقولة (ﷺ) لابن عباس: اللهم فقهه في الدين وعلمه التأويل"[3].

---

[1] سورة الأنعام: آية (٥٩).

[2] سورة لقمان: آية (٣٤).

[3] نقل السيوطي هذا التقسيم عن الراغب الأصفهاني في "المفردات" انظر الاتقان، ج٢، ص٥.

المبحث الثالث: فوائد المتشابه

ما الحكمة في إنزال المتشابه ووجوده؟ والجواب على ذلك: أن فوائد المتشابه تختلف بالنسبة إلى ما يمكن علمه، والي مالا يمكن علمه.

فوائد المتشابه الذي لا يمكن علمه (ما استأثر الله بعلمه)[1]:

اولاً: رحمة الله بهذا الإنسان الضعيف الذي لا يطيق معرفة كل شيء. وإذا كان الجبل حين تجلي له ربه جعله دكاً، وخر موسى صعقاً، فكيف لو تجلي سبحانه بذاته وحقائق صفاته للإنسان؟ ومن هذا القبيل أخفي الله على الناس معرفة الساعة رحمة بهم، كيلا يتكاسلوا ويقعدوا عن الاستعداد لها، وكيلا يفتك بهم الخوف والهلع لو أدركوا شدة قربها منهم. ولمثل هذا حجب الله عن العباد معرفة آجالهم، ليعيشوا في بحبوحة من أعمارهم. فسبحان من إلهه حكيم رحمن رحيم.

ثانياً: الابتلاء والاختبار: ابتلاء العباد بالوقوف عنده، والتوقف فيه، والتفويض والتسليم، والتعبد بالاشتغال به من جهة التلاوة كالمنسوخ، وإن لم يجز العمل بما فيه.

ثالثاً: إقامة الدليل على عجز الإنسان وجهالته، مهما عظم استعداده وغزر علمه، وإقامة شاهد على قدرة الله الخارقة، وأنه وحده هو الذي أحاط بكل شيء علماً، وأن الخلق جميعاً لا يحيطون بشيء من علمه إلا بما شاء.

رابعا: إقامة الحجة على العرب البلغاء، لأن القرآن نزل بلسانهم ولغتهم، ومع ذلك فقد عجزوا عن الوقوف على معناه، فدل ذلك على أنه منزل من عند الله.

---

[1] راجع مناهل العرفان، ج٢، ص٢٨٢.

الفصل الرابع: الناسخ والمنسوخ

المبحث الأول: تعريف النسخ لغة واصطلاحاً وشروطه

والنسخ لغة: يطلق بمعني الإزالة، ومنه يقال: نسخت الشمس الظل: أي أزالته. ونسخت الريح أثر المشي –ويطلق بمعني نقل الشيء من موضع إلى موضع، ومنه نسخت الكتاب: إذا نقلت ما فيه. وفي القرآن:﴿إِنَّا كُنَّا نَسْتَنسِخُ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٩﴾﴾[1]، والمرد به نقل الاعمال إلى الصحف.

والنسخ في الاصطلاح: رفع الحكم الشرعي بخطاب شرعي

فخرج بالحكم رفع البراءة الأصلية، وخرج بقولنا: بخطاب شرعي: رفع الحكم بموت او جنون او إجماع او قياس.

ويطلق الناسخ على الله تعالي كقوله: ﴿مَا نَنسَخْ مِنْ ءَايَةٍ﴾[2]، وعلى الآية وما يعرف به النسخ، فيقال: هذه الآية ناسخة لآية كذا، وعلى الحكم الناسخ، فيقال: هذه الآية ناسخة لآية كذا، وعلى الحكم الناسخ لحكم آخر.

والمنسوخ هو الحكم المرتفع، فآية المواريث مثلا أو ما فيها من حكم ناسخ لحكم الوصفية للوالدين والأقربين.

ومقتضى ما سبق أنه يشترط في النسخ:

١. أن يكون الحكم المنسوخ حكماً شرعياً.

---

[1] سورة الجاثية: آية (٢٩).

[2] سورة البقرة: آية (١٠٦).

٢. أن يكون الدليل على ارتفاع الحكم خطاباً شرعياً متراخياً عن الخطاب المنسوخ حكمه.

٣. وألا يكون الخطاب المرفوع حكمه مقيداً بوقت معين. وإلا فالحكم ينتهي بانتهاء وقته ولا يعد هذا نسخاً. قال "مكي" [ت٤٣٧ هـ] في كتابه (الناسخ والمنسوخ): ذكر جماعة ان ما ورد من الخطاب مشعراً بالتوقيت والغاية مثل قوله في البقرة: ﴿فَٱعۡفُواْ وَٱصۡفَحُواْ حَتَّىٰ يَأۡتِيَ ٱللَّهُ بِأَمۡرِهِۦ﴾[1]، محكم غير منسوخ، لأنه مؤجل بأجل؛ والمؤجل بأجل لا نسخ فيه.

[1] سورة البقرة: آية (١٠٩).

المبحث الثاني: ما يقع فيه النسخ

ومن هنا يعلم أن بنسخ لا يكون إلا فى الأوامر والنواهى –سواء كانت صريحة في الطلب أو كانت بلفظ الخبر الذي بمعنى الأمر أو النهي، على أن يكون ذلك غير متعلق بالاعتقادات التي ترجع إلى ذات الله تعالي وصفاته وكتبه ورسله واليوم الآخر، أو الآداب الخلقية، أو أصول العبادات والمعاملات؛ لأن الشرائع كلها لا تخلو عن هذه الأصول. وهى متفقة فيها، قال تعالي: ﴿۞شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِيٓ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ وَمَا وَصَّيۡنَا بِهِۦٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓۖ أَنۡ أَقِيمُواْ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُواْ فِيهِۚ﴾.[1] ، وقال: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ﴾[2]، وقال: ﴿ وَأَذِّن فِي ٱلنَّاسِ بِٱلۡحَجِّ يَأۡتُوكَ رِجَالٗا﴾[3]، وقال في القصاص: ﴿ وَكَتَبۡنَا عَلَيۡهِمۡ فِيهَآ أَنَّ ٱلنَّفۡسَ بِٱلنَّفۡسِ وَٱلۡعَيۡنَ بِٱلۡعَيۡنِ وَٱلۡأَنفَ بِٱلۡأَنفِ وَٱلۡأُذُنَ بِٱلۡأُذُنِ وَٱلسِّنَّ بِٱلسِّنِّ وَٱلۡجُرُوحَ قِصَاصٞۚ﴾[4]، وقال في الجهاد: ﴿ وَكَأَيِّن مِّن نَّبِيٖ قَٰتَلَ مَعَهُۥ رِبِّيُّونَ كَثِيرٞ ﴾[5]، وفي الأخلاق: ﴿وَلَا تُصَعِّرۡ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمۡشِ فِي ٱلۡأَرۡضِ مَرَحًاۖ﴾[6].

كما لا يدخل النسخ الخبر الصريح الذي ليس بمعني الطلب كالوعد والوعيد أما العقائد: فلأنها حقائق ثابتة صحيحة لا تقبل التغيير والتبديل فبديهي الا يتعلق بها نسخ.

---

[1] سورة الشورى: آية (١٣).

[2] سورة البقرة: آية (١٨٣).

[3] سورة الحج: آية (٢٧).

[4] سورة المائدة: آية (٤٥).

[5] سورة آل عمران: آية (١٤٦).

[6] سورة لقمان: آية (١٨).

وأما امهات الأخلاق: فلأن حكمة الله في شرعها، ومصلحة الناس في التخلق بها أمر ظاهر لا يتأثر بمرور الزمن، ولا يختلف باختلاف الأشخاص والأمم حتى يتناولها النسخ بالتبديل والتغيير.

وأما أصول العبادات والمعاملات: فلوضوح حاجة الخلق إليهما باستمرار، لتزكية النفوس وتطهيرها، ولتنظيم علاقة المخلوق بالخالق والخلق على أساسهما، فلا يظهر وجه من وجوه الحكمة في رفعها بالنسخ.

المبحث الثالث: ما به يعرف النسخ وأهميته

ولمعرفة الناسخ والمنسوخ أهمية كبيرة عند أهل العلم من الفقهاء والأصوليين والمفسرين حتي لا تختلط الأحكام، ولذلك وردت آثار كثيرة في الحث على معرفته، فقد روي أن علياً (رضي الله عنه) مر على قاض فقال له: أتعرف الناسخ من المنسوخ؟ قال: لا، فقال: هلكت وأهلكت، وعن ابن عباس أنه قال في قوله تعالي: ﴿وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا﴾[1]، قال "ناسخه ومنسوخه ومحكمه ومشابهه ومقدمه ومؤخره، وحرامه وحلاله[2].

ولمعرفة الناسخ والمنسوخ طرق:

١. النقل الصريح عن النبي (ﷺ) أو عن صحابي كحديث "كنت نهيتكم عن زيارة القبور ألا فزوروها" رواه الحاكم. وقول انس في قصة أصحاب بئر معونة كما سيأتي: ونزل فيهم قرآناً قرأناه حتى رفع.[3]

٢. إجماع الأمة على أن هذا ناسخ وهذا منسوخ.

٣. معرفة المتقدم من المتأخر في التاريخ.

ولا يعتمد في الناسخ والمنسوخ على الاجتهاد، أو قول المفسرين، او التعارض بين الأدلة ظاهراً، أو تأخر إسلام أحد الراويين.

---

[1] سورة البقرة: آية (٢٦٩).

[2] أخرجه ابن جرير وابن المنذر وابن ابي حاتم عن ابن عباس.

[3] هم بعث من أصحاب رسول الله بعثهم إلى أهل نجد، فساروا حتى نزلوا ببئر معونة، فاستصرخ عليهم عامر بن الطفيل قبائل من بني سليم من عصية ورحل وذكوان – وأحاطوا بهم وقاتلوهم حتي قتلوا عن آخرهم.

المبحث الرابع: الآراء في النسخ وأدلة ثبوته

والناس في النسخ على أربعة أقسام:

١. **اليهود:** وهؤلاء يكرونه لأنه يستلزم في زعمهم البداء، وهو الظهور بعد الخفاء، وهم يعنون بذلك: أن النسخ إما ان يكون لغير حكمة، وهذا عبث محال على الله، وإما أن يكون لحكمة ظهرت ولم تكن ظاهرة من قبل وهذا يستلزم البداء وسبق الجهل، وهو محال على الله تعالي.

واستدلالهم هذا فاسد، لأن كلاً من حكمة الناسخ وحكمة المنسوخ معلوم لله تعالي من قبل، فلم يتجدد علمه بها وهو سبحانه ينقل العباد من حكم إلى حكم لمصلحة معلومة له من قبل بمقتضى حكمته وتصرفه المطلق في ملكه.

واليهود أنفسهم يعترفون بأن شريعة موسى ناسخة لما قبلها. وجاء في نصوص التوراة النسخ، كتحريم كثير من الحيوان على بني إسرائيل بعد حله، قال تعالي في إخباره عنهم: ﴿كُلُّ ٱلطَّعَامِ كَانَ حِلًّا لِّبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسۡرَٰٓءِيلُ عَلَىٰ نَفۡسِهِۦ﴾[١]، وقال: ﴿وَعَلَى ٱلَّذِينَ هَادُواْ حَرَّمۡنَا كُلَّ ذِي ظُفُرٖۖ﴾[٢]

وثبت في التوراة أن آدم كان يزوج من الأخت. وقد حرم الله ذلك على موسى، وأن موسى أمر بني إسرائيل أن يقتلوا من عبد منهم العجل ثم أمرهم برفع السيف عنهم.

٢. **الروافض:** وهؤلاء غالوا في اثبات النسخ وتوسعوا فيه، وأجازوا البداء على الله تعالي، فهم مع اليهود على طرفي نقيض، واستدلوا على ذلك بأقوال نسبوها الى

---

[١] سورة آل عمران: آية (٩٣).

[٢] سورة الأنعام: آية (١٤٦).

على (ﷺ) زورا وبهتانا، وبقوله تعالي: ﴿يَمْحُواْ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ وَيُثْبِتُ﴾[1] ،على معني أنه يظهر له المحو والإثبات.

وذلك إغراق في الضلال، وتحريف للقرآن. فإن معني الآية: ينسخ الله ما يستصوب نسخه ويثبت بدله ما يرى المصلحة في اثباته، وكل من المحو والإثبات موجود في كثير من الحالات، كمحو السيئات بالحسنات ﴿إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾[2]، ومحو كفر التائبين ومعاصيهم للتوبة وإثبات إيمانهم وطاعتهم. ولا يلزم من ذلك الظهور بعد الخفاء، بل يفعل الله هذا مع علمه به قبل كونه.

٣. **أبو مسلم الأصفهاني**[3]: وهو يجوز النسخ عقلاً ويمنع وقوعه شرعاً، وقيل يمنعه في القرآن خاصة محتجاً بقوله تعالي: ﴿لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ۝٤٢﴾[4]، على معني أن أحكامه لا تبطل أبداً. ويحمل آيات النسخ على التخصيص.

ورد عليه بأن معني الآية أن القرآن لم يتقدمه ما يبطله من الكتب ولا يأتي بعده ما يبطله.

٤. **وجمهور العلماء**: على جواز النسخ عقلاً ووقوعه شرعا لأدلة:

---

[1] سورة الرعد: آية: (٣٩).

[2] سورة هود: آية (١١٤).

[3] هو محمد بن بحر، المشهور بأبي مسلم الأصفهاني، معتزلي، من كبار المفسرين. أهم كتبه "جامع التأويل" في التفسير، توفي سنة ٣٢٢ هجرية.

[4] سورة فصلت: آية (٤٢).

أما أدلة جوازه عقلاً:

١. إن أفعال الله لا تعلل بالأغراض، فله أن يأمر بالشيء في وقت وينسخه بالنهي عنه في وقت، وهو أعلم بمصالح العباد.

٢. إن النسخ لو لم يكن جائزاً عقلاً وواقعاً سمعا، لما ثبت رسالة سيدنا محمد (ﷺ) إلى الناس كافة، ولمن رسالته عامة للناس ثابته بالأدلة القاطعة، إذن فالشرائع السابقة ليست باقية، بل هي منسوخة بهذه الشريعة الختامية، وإذن فالنسخ جائز وواقع.

أما أدلة جوازه سماعا:

١. قال تعالي: ﴿وَإِذَا بَدَّلْنَآ ءَايَةً مَّكَانَ ءَايَةٍ﴾[١]، وقال: ﴿مَا نَنسَخْ مِنْ ءَايَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَآ أَوْ مِثْلِهَآ﴾[٢].

٢. وفي الصحيح عن ابن عباس (رضي الله عنه) قال: قال عمر (رضي الله عنه): أقرؤنا أبي، وأقضانا، وإنا لندع من قول أبي، وذلك أن أبياً يقول: لا أدع شيئاً سمعته من رسول الله (ﷺ)، وقد قال الله (عز وجل) (ما ننسخ من آية أو ننسها).

---

[١] سورة النحل: آية (١٠١) – ووجه الدلاة في هذه الآية أن التبديل يتألف من رفع لأصل وإثبات لبدل، وذلك هو النسخ، سواء أكان المرفوع تلاوة أم حكماً.

[٢] سورة البقرة: آية (١٠٦).

المبحث الخامس: أقسام النسخ

والنسخ أربعة أقسام:

القسم الأول: نسخ القران بالقران: وهذا القسم متفق على جوازه ووقوعه من القائلين بالنسخ، فآية الاعتداد بالحول مثلاً نسخت بآية الاعتداد بأربعة أشهر وعشرا، كما سيأتي في الأمثلة.

القسم الثاني: نسخ القرآن بالسنة: وتحت هذا نوعان:

أ. **نسخ القرآن بالسنة الأحادية:** والجمهور على عدم جوازه. لأن القرآن متواتر يفيد اليقين، والأحادي مظنون، ولا يصح رفع المعلوم بالمظنون.

ب. **ونسخ القرآن بالسنة المتواترة:** وقد أجازه مالك وأبو حنيفة وأحمد في رواية، لأن الكل وحي. قال تعالي: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ۝٣ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ ۝٤﴾[1]، وقال: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾[2]، والنسخ نوع من البيان –ومنعه الشافعي وأهل الظاهر وأحمد في الرواية الأخرى، لقوله تعالي: ﴿مَا نَنسَخْ مِنْ ءَايَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَآ أَوْ مِثْلِهَآ﴾[3]، والسنة ليست خيراً من القرآن ولا مثله.

القسم الثالث: نسخ السنة بالقرآن، ويجيزه الجمهور، فالتوجه إلى بيت المقدس كان ثابتاً بالسنة، وليس في القرآن ما يدل عليه، وقد نسخ بالقرآن في قوله: ﴿فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ﴾[4]، ووجوب صوم يوم عاشوراء كان ثابتاً ونسخ بقوله: ﴿فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ

---

[1] سورة النجم: آية (٣–٤).

[2] سورة النحل: آية (٤٤).

[3] سورة البقرة: آية (١٠٦).

[4] سورة البقرة: آية (١٤٤).

ٱلشَّهۡرَ فَلۡيَصُمۡهُۖ﴾[1]، ومنع هذا القسم الشافعي في إحدى روايتيه، وقال: "وحيث وقع بالسنة فمعها قرآن، أو بالقرآن فمعه سنة عاضده تبين توافق الكتاب والسنة[2].

القسم الرابع: نسخ السنة بالسنة: وتحت هذا أربعة أنواع:

١. نسخ متواترة بمتواترة.

٢. ونسخ آحاد بآحاد.

٣. ونسخ آحاد بمتواتره.

٤. ونسخ متواترة بآحاد –والثلاثة الأولي جائزة– أما النوع الرابع ففيه الخلاف الوارد في نسخ القرآن بالسنة الأحادية، والجمهور على عدم جوازه.

أما نسخ كل من الإجماع والقياس والنسخ بهما فالصحيح عدم جوازه.

---

[1] سورة البقرة: آية (١٨٥) – أخرجه البخاري ومسلم عن عائشة قالت: "كان عاشوراء صياماً، فلما أنزل رمضان كان من شاء صام ومن شاء أفطر".

[2] انظر الإتقان، ج٢، ص٢١.

المبحث السادس: أنواع النسخ في القرآن

والنسخ في القرآن ثلاثة أنواع:

النوع الأول: نسخ التلاوة والحكم معاً، ومثاله: ما رواه مسلم وغيره عن عائشة قالت: "كان فيما أنزل عشر رضعات معلومات يحرمن فنسخ بخمس معلومات "فتوفي رسول الله (ﷺ)" وهن ما يقرأ من القرآن" ظاهره بقاء التلاوة، وليس كذلك، فإنه غير موجود في المصحف العثماني.

والأظهر أن التلاوة نسخت ولم يبلغ ذلك كل الناس إلا بعد وفاة رسول الله (ﷺ)، فتوفي وبعض الناس يقرؤها.

وحكي القاضي أبو بكر في "الانتصار" عن قوم إنكار هذا القسم لأن الأخبار فيه أخبار آحاد، ولا يجوز القطع على إنزال القرآن ونسخه بأخبار آحاد لا حجة فيها تفيد القطع، ولكنها ظنية.

ويجاب على ذلك بأن ثبوت النسخ شيء، وثبوت نزول القران شيء آخر، فثبوت النسخ يكفي فيه الدليل الظني بخبر الآحاد، اما ثبوت نزول القرآن فهو الذلى يشترط فيه الدليل القطعي، والذي معنا ثبوت النسخ لا ثبوت القرآن فيكفي فيه أخبار الآحاد. ولو قيل إن هذه القراءة لم تثبت بالتواتر لصح ذلك.

النوع الثاني: نسخ الحكم وبقاء التلاوة: ومثالة: نسخ حكم آية العدة بالحول مع بقاء تلاوتها – وهذا النوع هو الذي ألفت فيه الكتب وذكر المؤلفون فيه الآيات المتعددة. والتحقق أنها قليلة، كما بين ذلك القاضي أبو بكر بن العربي.

وقد يقال ما الحكمة في رفع الحكم وبقاء التلاوة؟

والجواب من وجهين: أحدهما: أن القرآن كما يتلى ليعرف الحكم منه، فإنه يتلي كذلك لكونه كلام الله تعالي فيثاب عليه، فبقيت التلاوة لهذه الحكمة.

وثانيهما: أن النسخ غالباً يكون للتخفيف، فأبقيت التلاوة تذكيراً بالنعمة في رفع المشقة.

وأما حكمة النسخ قبل العمل، كالصدقة عند النجوى، فيثاب على الإيمان به، وعلى نية طاعة الأمر.

النوع الثالث: نسخ التلاوة مع بقاء الحكم: وقد ذكروا له أمثلة كثيرة منها آية الرجم "الشيخ والشيخة إذا زنيا فارجموهما البتة نكالاً من الله والله عزيز حكيم" ومنها ما روي في الصحيحين عن أنس في قصة أصحاب بئر معونة الذين قتلوا وقنت الرسول يدعو على قاتليهم، قال أنس: ونزل فيهم قرآن قرأناه حتى رفع "أن بلغوا عنا قومنا أنا لقينا ربنا فرضي عنا وأرضانا، ثم نسخت تلاوته –وبعض أهل العلم ينكر هذا النوع من النسخ. لأن الأخبار فيه أخبار آحاد، ولا يجوز القطع على إنزال قرآن ونسخه بأخبار آحاد قال ابن الحصار: "إنما يرجع في النسخ إلى نقل صريح عن رسول الله (ﷺ)، أو عن صحابي يقول: آية كذا نسخت كذا، قال: وقد يحكم به عند وجود التعارض المقطوع به مع علم التاريخ ليعرف المتقدم والمتأخر، قال ولا يعتمد في النسخ على قول عوام المفسرين، بل ولا اجتهاد المجتهدين من غير نقل صريح، ولا معارضة بينه، لأن النسخ يتضمن رفع حكم وإثبات حكم تقرر في عهده (ﷺ)، والمعتمد فيه النقل والتاريخ دون الرأي والاجتهاد، وقال: والناس في هذا بين طرفي نقيض، فمن قائل لا يقبل في النسخ أخبار الآحاد العدول، ومن متساهل يكتفي فيه بقول مفسر أو مجتهد، والصواب خلاف قولهما[1].

[1] انظر: الإتقان، ج٢، ص٢٤.

وقد يقال: إن الآية والحكم المستفاد منها متلازمان، لأن الآية دليل على الحكم. فإذا نسخت الآية نسخ حكمها. وإلا وقع الناس في لبس.

ويجاب عن ذلك بأن هذا التلازم يسلم لو لم ينصب الشارع دليلاً علي نسخ التلاوة، وعلى إبقاء الحكم، أما وقد نصب الدليل على نسخ التلاوة وحدها، وعلى إبقاء الحكم واستمراره فإن التلازم يكون باطلاً، وينتفي اللبس بهذا الدليل الشرعي الذي يدل على نسخ التلاوة مع بقاء الحكم.

المبحث السابع: النسخ إلى بدل وإلى غير بدل

والنسخ يكون إلى بدل والي غير بدل – والنسخ إلى بدل: إما إلى بدل أخف، وإما إلى بدل ممثل، وإما إلى بدل اثقل:

١. **فالنسخ إلى غير بدل:** كنسخ الصدقة بين يدي نجوى رسول الله (ﷺ) في قوله تعالي: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نَـٰجَيْتُمُ ٱلرَّسُولَ فَقَدِّمُواْ بَيْنَ يَدَىْ نَجْوَىٰكُمْ صَدَقَةً﴾[١]، نسخت بقوله: ﴿ءَأَشْفَقْتُمْ أَن تُقَدِّمُواْ بَيْنَ يَدَىْ نَجْوَىٰكُمْ صَدَقَـٰتٍ فَإِذْ لَمْ تَفْعَلُواْ وَتَابَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمْ فَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ﴾[٢].

وأنكر بعض المعتزلة والظاهرية ذلك، وقالوا: إن النسخ بغير بدل لا يجوز شرعاً، لأن الله تعالي يقول: ﴿مَا نَنسَخْ مِنْ ءَايَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَآ أَوْ مِثْلِهَآ﴾[٣]، حيث أفادت الآية أنه لابد أن يؤتي مكان الحكم المنسوخ بحكم آخر خير منه أو مثله.

ويجاب عن ذلك بأن الله تعالي إذا نسخ حكم الآية بغير بدل فإن هذا يكون بمقتضى حكمته، رعاية لمصلحة عباده، فيكون عدم الحكم خيرا من ذلك الحكم المنسوخ في نفعه للناس، ويصح حينئذ أن يقال: ان الله نسخ حكم الآية السابقة بما هو خير منها حيث كان عدم الحكم خيرا للناس.

٢. والنسخ إلى بدل أخف: يمثلون له بقوله تعالي: ﴿أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ ٱلصِّيَامِ ٱلرَّفَثُ إِلَىٰ نِسَآئِكُمْ﴾[٤]، الآية – فهي ناسخة لقوله: ﴿كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ﴾[٥] لأن

---

[١] سورة المجادلة: آية (١٢).

[٢] سورة المجادلة: آية (١٣).

[٣] سورة البقرة: آية (١٠٦).

[٤] سورة البقرة: آية (١٨٧).

[٥] سورة البقرة: آية (١٨٣).

مقتضاها الموافقة لما كان عليه السابقون من تحريم الأكل والشرب والوطء إذا صلوا العتمة أو ناموا إلى الليلة التالية، كما ذكروا ذلك، فقد روي ابن أبي حاتم عن ابن عمر قال: أنزلت (كتب عليكم الصيام كما كتب على الذين من قبلكم) كتب عليهم إذا صلي أحدهم العتمة أو نام حرم عليه الطعام والشراب والنساء إلى مثلها، وروي مثله أحمد والحاكم وغيرهما، وفيه "فأنزل الله (ﷻ) (أحل لكم ليلة الصيام الرفث إلى نسائكم) الآية.

٣. **النسخ إلى بدل مماثل:** كنسخ التوجه إلى بيت المقدس بالتوجه إلى الكعبة في قوله: ﴿فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ﴾[١].

٤. **والنسخ إلى بلد اثقل:** كنسخ الحبس في البيوت في قوله: ﴿وَٱلَّٰتِي يَأْتِينَ ٱلْفَٰحِشَةَ مِن نِّسَآئِكُمْ فَٱسْتَشْهِدُواْ عَلَيْهِنَّ أَرْبَعَةً مِّنكُمْ ۖ فَإِن شَهِدُواْ فَأَمْسِكُوهُنَّ فِي ٱلْبُيُوتِ﴾[٢]، بالجلد في قوله: ﴿ٱلزَّانِيَةُ وَٱلزَّانِي﴾[٣]، أو الرجم في قوله "الشيخ والشيخة إذا زنيا فارجموهما البتة ..."[٤].

---

[١] سورة البقرة: آية (٤٤).

[٢] سورة النساء: آية (١٥).

[٣] سورة النور: آية (٢).

[٤] اعترض بعض العلماء على هذا النوع محتجين بقوله تعالي: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ﴾وقوله: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمْ﴾. ويجاب عن ذلك بأن البدل الى أثقل يكون ميسراً على المكلفين دون مشقة أو إرهاق مع ما فيه من زيادة النفع وعظيم الثواب، وثقله وصف له بالنسبة إلي ما قبله.

المبحث الثامن: شبه النسخ

وللناسخ والمنسوخ أمثلة كثيرة، إلا أن العلماء في هذا:

أ. منهم المكثر الذي اشبه عليه الأمر فأدخل في النسخ ما ليس منه.

ب.ومنهم المتحري الذي يعتمد على النقل الصحيح في النسخ.

ومنشأ الاشتباه عند المكثرين امور أهمها:

١. اعتبار التخصيص نسخاً.

٢. اعتبار البيان نسخاً.

٣. اعتبار ما شرع لسبب ثم زال السبب من المنسوخ، كالحث على الصبر وتحمل أذى الكفار في مبدأ الدعوة حين الضعف والقلة، قالوا إنه منسوخ بآيات القتال، والحقيقة أن الأول –وهو وجوب الصبر والتحمل– كان ويكون لحالة الضعف والقلة. وإذا وجدت الكثرة والقوة وجب الدفاع عن العقيدة بالقتال، وهو الحكم الثاني.

٤. اعتبار ما أبطله الإسلام من أمر الجاهلية أو من شرائع الأمم السابقة نسخا: كتحديد عدد الزوجات بأربع، ومشروعية القصاص والدية، وقد كان عند بني إسرائيل القصاص فقط كما قال ابن عباس رواه البخاري[1]، ومثل هذا ليس نسخا، وإنما هو رفع للبراءة الأصلية.

---

[1] أخرج البخاري وغيره عن ابن عباس قال: كان في بنى إسرائيل القصاص ولم تكن الدية فيهم فقال الله لهذه الأمة ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِصَاصُ فِى ٱلْقَتْلَى﴾ البقرة(١٧٨) إلى قوله ﴿فَمَنْ عُفِىَ لَهُۥ مِنْ أَخِيهِ شَىْءٌ﴾ فالعفو أن تقبل الدية في العمد ﴿فَٱتِّبَاعٌۢ بِٱلْمَعْرُوفِ وَأَدَآءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَـٰنٍ﴾ ذَٰلِكَ تَخْفِيفٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ﴾. مما كتب على من كان قبلكم ﴿ فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ ﴾ قيل بعد قبول الدية ﴿ فَلَهُۥ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾.

المبحث التاسع: أمثلة للنسخ

وقد ذكر السيوطي في الإتقان إحدى وعشرين آيه اعتبرها من قبيل النسخ نذكر منها ما يأتي ونعلق عليه:

١. قوله تعالي: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ فَأَيْنَمَا تُوَلُّواْ فَثَمَّ وَجْهُ ٱللَّهِ﴾[١] منسوخة بقوله: ﴿فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ﴾[٢]، وقد قيل –وهو الحق– إن الأولي غير منسوخة لأنها في صلاة التطوع في السفر على الراحلة وكذا في حالة الخوف والاضطرار، وحكمها باق، كما في الصحيحين، والثانية في الصلوات الخمس، والصحيح أنها ناسخة لما ثبت فى السنة من استقبال بيت المقدس.

٢. قوله تعالي: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ إِن تَرَكَ خَيْرًا ٱلْوَصِيَّةُ لِلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ﴾[٣]. قيل منسوخة بآية المواريث، وقيل بحديث "إن الله قد أعطي كل ذي حق حقه، فلا وصية لوارث"[٤].

٣. قوله: ﴿وَعَلَى ٱلَّذِينَ يُطِيقُونَهُۥ فِدْيَةٌ﴾[٥] نسخت بقوله: ﴿فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ ٱلشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ﴾.[٦] لما في الصحيحين من حديث سلمة بن الأكوع أنه قال: لما نزلت (وعلى الذين يطيقونه فدية طعام مسكين) كان من أراد أن يفطر يفتدي، حتى نزلت الآية التي بعدها فنسختها".

---

[١] سورة البقرة: آية (١١٥).

[٢] سورة البقرة: آية (١٤٤).

[٣] سورة البقرة: آية (١٨٠).

[٤] رواه أبو داوود والترمذي، وقال: حسن صحيح.

[٥] سورة البقرة: آية (١٨٤).

[٦] سورة البقرة: (١٧٥).

وذهب ابن عباس إلى أنها محكمة غير منسوخة: روي البخاري عن عطاء أنه سمع ابن عباس رضي الله عنهما يقرأ: (وعلى الذين يطيقونه فدية طعام مسكين) قال ابن عباس: ليست بمنسوخة. هي للشيخ الكبير والمرأة الكبيرة لا يستطيعان أن يصوما فيطعمان كل يوم مسكيناً- وليس معني (يطيقونه) على هذا يستطيعونه، وإنما معناه يتحملونه بمشقة وكلفة. وبعضهم جعل الكلام على تقدير لا النافية، أو وعلي الذين يطيقونه.

٤. قوله: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلشَّهْرِ ٱلْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ ۖ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ﴾[١]، نسخت بقوله ﴿وَقَٰتِلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ كَآفَّةً كَمَا يُقَٰتِلُونَكُمْ كَآفَّةً﴾[٢]. وقيل يحمل عموم الأمر بالقتال على غير الأشهر الحرام فلا نسخ.

٥. قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَٰجًا وَصِيَّةً لِّأَزْوَٰجِهِم مَّتَٰعًا إِلَى ٱلْحَوْلِ غَيْرَ إِخْرَاجٍ﴾[٣]، نسخت بقوله: ﴿وَٱلَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَٰجًا يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا﴾[٤].

وقيل إن الآية الأولي محكمة لأنها في مقام الوصية للزوجة إذا لم تخرج ولم تتزوج، أما الثانية فهي بيان العدة، ولا تنافي بينهما.

٦. قوله: ﴿وَإِن تُبْدُوا۟ مَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُم بِهِ ٱللَّهُ﴾[٥] نسخت بقوله: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾[٦].

---

[١] سورة البقرة: آية (٢١٧).

[٢] سورة التوبة: آية (٣٦).

[٣] سورة البقرة: آية (٢٤٠).

[٤] سورة البقرة: آية (٢٣٤).

[٥] سورة البقرة: آية (٢٨٤).

[٦] سورة البقرة: آية (٢٨٦).

٧. قوله: ﴿وَإِذَا حَضَرَ ٱلْقِسْمَةَ أُوْلُواْ ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينُ فَٱرْزُقُوهُم مِّنْهُ﴾[١]، نسخت بآية المواريث وقيل –وهو الصواب– إنها غير منسوخة، وحكمها باق على الندب.

٨. قوله: ﴿وَٱلَّٰتِي يَأْتِينَ ٱلْفَٰحِشَةَ مِن نِّسَآئِكُمْ فَٱسْتَشْهِدُواْ عَلَيْهِنَّ أَرْبَعَةً مِّنكُمْ ۖ فَإِن شَهِدُواْ فَأَمْسِكُوهُنَّ فِي ٱلْبُيُوتِ حَتَّىٰ يَتَوَفَّىٰهُنَّ ٱلْمَوْتُ أَوْ يَجْعَلَ ٱللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلًا ﴿١٥﴾ وَٱلَّذَانِ يَأْتِيَٰنِهَا مِنكُمْ فَـَٔاذُوهُمَا ۖ فَإِن تَابَا وَأَصْلَحَا فَأَعْرِضُواْ عَنْهُمَآ﴾[٢]، نسختا بآية الجلد للبكر في سورة النور: ﴿ٱلزَّانِيَةُ وَٱلزَّانِي فَٱجْلِدُواْ كُلَّ وَٰحِدٍ مِّنْهُمَا مِاْئَةَ جَلْدَةٍ﴾[٣]. وبالجلد للبكر وبالرجم للثيب الوارد في السنة" .. البكر بالبكر جلد مائة والرجم"[٤].

---

[١] سورة النساء: آية (٨).

[٢] سورة النساء: آية (١٥–١٦).

[٣] سورة النور: آية (٢).

[٤] رواه مسلم من حديث عبادة بن الصامت.

المبحث العاشر: حكمة النسخ

للنسخ حكم عديدة نذكر منها على سبيل المثال، لا الحصر:

١. مراعاة مصالح العباد.

٢. تطور التشريع إلى مرتبة الكمال حسب تطور الدعوة وتطور حال الناس.

٣. ابتلاء المكلف واخباره بالامتثال وعدمه.

٤. إرادة الخبر للأمة والتيسير عليها، لأن النسخ إن كان إلى أشق ففيه زيادة الثواب، وإن كان إلى أخف ففيه سهولة ويسر.

الفصل الخامس: العام والخاص

تمهيد:

للنظم التشريعية والأحكام الدينية مقاصد تهدف إليها، وقد يجتمع للحكم التشريعي خصائص تجعله عاماً يشمل كل الأفراد، أو ينطبق على جميع الحالات، وقد يكون لذلك القصد غاية خاصة فالتعبير عنه يتناول بعمومه الحكم ثم يأتي ما يبين حده أو يحصر نطاقه، والبيان العربي في تلوين الخطاب وبيان المقاصد والغايات مظهر من مظاهر قوة اللغة واتساع مادتها، فإذا ورد هذا في كلام الله المعجز كان وقعه في النفس عنوان إعجاز تشريعي مع الإعجاز اللغوي.

المبحث الأول: تعريف العام وصيغ العموم

العام: هو اللفظ المستغرق لما يصلح له من غير حصر

وقد اختلف العلماء في معنى العموم، أله في اللغة صيغة موضوعة له خاصة به دل عليه أم لا؟

فذهب أكثر العلماء إلى أن هناك صيغاً وضعت في اللغة للدلالة حقيقة على العموم، وتستعمل مجازاً فيما عداه، واستدلوا على ذلك بأدلة نصية، وإجماعيه ومعوية.

أ. **فمن الأدلة النصية** قوله تعالي: ﴿وَنَادَىٰ نُوحٌ رَّبَّهُۥ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ٱبْنِى مِنْ أَهْلِى وَإِنَّ وَعْدَكَ ٱلْحَقُّ وَأَنتَ أَحْكَمُ ٱلْحَٰكِمِينَ ۝٤٥ قَالَ يَٰنُوحُ إِنَّهُۥ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ﴾[1]، ووجه الدلالة أن نوحاً (عليه السلام) توجه بهذا النداء تمسكاً منه بقوله تعالي: ﴿إِنَّا مُنَجُّوكَ وَأَهْلَكَ﴾[2]، وأقره

[1] سورة هود: آية (٤٥-٤٦).

[2] سورة العنكبوت: آية (٣٣).

الله تعالى على هذا النداء، وأجابه بما دل على أنه ليس من اهله، ولولا ان إضافة الأهبل إلى نوح للعموم لما صح ذلك.

ومنها قوله تعالي: ﴿وَلَمَّا جَآءَتْ رُسُلُنَآ إِبْرَٰهِيمَ بِٱلْبُشْرَىٰ قَالُوٓاْ إِنَّا مُهْلِكُوٓاْ أَهْلِ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِۖ إِنَّ أَهْلَهَا كَانُواْ ظَٰلِمِينَ ۝٣١ قَالَ إِنَّ فِيهَا لُوطًاۚ قَالُواْ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَن فِيهَاۖ لَنُنَجِّيَنَّهُۥ وَأَهْلَهُۥٓ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ كَانَتْ مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ۝٣٢﴾[1]، ووجه الدلالة أن إبراهيم فهم من قول الملائكة ﴿أَهْلِ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِۖ﴾. العموم، حيث ذكر "لوطاً" فأقره الملائكة على ذلك، وأجابوه بتخصيص لوط وأهله بالاستثناء، واستثناء امرأته من الناجين، وذلك كله يدل على العموم.

ب. **ومن الأدلة الاجتماعية** إجماع الصحابة على إجراء قوله تعالي: ﴿ٱلزَّانِيَةُ وَٱلزَّانِي فَٱجْلِدُواْ كُلَّ وَٰحِدٍ مِّنْهُمَا مِاْئَةَ جَلْدَةٍۖ﴾[2]، وقوله: ﴿وَٱلسَّارِقُ وَٱلسَّارِقَةُ فَٱقْطَعُوٓاْ أَيْدِيَهُمَا﴾[3]، ونحو ذلك على العموم في كل زان وساق.

ج. **ومن الأدلة المعنوية**، أن العموم يفهم من استعمال ألفاظه، ولم لم تكن هذه الألفاظ موضوعة له لما تبادر إلى الذهن فهمه منها، كألفاظ الشرط والاستفهام والموصول.

وإننا ندرك الفرق بين "كل" "بعض" ولو كان "كل" غير مفيد للعموم لما تحقق الفرق.

ولو قال قائل فى النكرة المنفية "لا رجل في الدار" فإنه يعد كاذباً إذا قدر أنه رأى رجلاً ما، كما ورد قوله تعالى: ﴿قُلْ مَنْ أَنزَلَ ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِى جَآءَ بِهِۦ مُوسَىٰ﴾[4]، تكذيباً لمن قال: ﴿مَآ

---

[1] سورة العنكبوت: آية (٣١-٣٢).

[2] سورة النور: آية (٢).

[3] سورة المائدة: آية (٣٨).

[4] سورة الانعام: آية (٩١).

﴿أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَيۡءٖۗ﴾[1]، وهذا يدل على أن النكرة بعد النفي للعموم، ولو لم تكن للعموم لما كان قولنا "لا إله إلا الله" توحيداً لعدم دلالته على نفي كل إله سوى الله تعالى.

وبناء على هذا، فللعموم صيغه التي تدل عليه:

منها "كل" كقوله تعالي ﴿كُلُّ نَفۡسٖ ذَآئِقَةُ ٱلۡمَوۡتِۗ﴾.[2]، وقوله ﴿خَٰلِقُ كُلِّ شَيۡءٖ﴾[3]، ومثلها جميع.

ومنها: المعرف بأل التي ليست للعهد كقوله ﴿وَٱلۡعَصۡرِ ١ إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَفِي خُسۡرٍ ٢﴾[4] ، أي كل إنسان، بدليل قوله بعد ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾[5]، وقوله ﴿وَأَحَلَّ ٱللَّهُ ٱلۡبَيۡعَ﴾[6]، وقوله ﴿وَٱلسَّارِقُ وَٱلسَّارِقَةُ فَٱقۡطَعُوٓاْ أَيۡدِيَهُمَا﴾[7].

ومنها: النكرة في سياق النفي والنهي كقوله ﴿فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِي ٱلۡحَجِّۗ﴾[8]، وقوله ﴿فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفّٖ وَلَا تَنۡهَرۡهُمَا﴾[9] أو في سياق الشرط كقوله ﴿وَإِنۡ أَحَدٞ مِّنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ٱسۡتَجَارَكَ فَأَجِرۡهُ حَتَّىٰ يَسۡمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ﴾.

---

[1] سورة آل عمران: آية (١٨٥).

[2] سورة الأنعام: آية (١٠٢).

[3] سورة العصر: آية (١-٢).

[4] سورة العصر: آية (٣).

[5] سورة البقرة: آية (٢٧٥).

[6] سورة المائدة: آية (٣٨).

[7] سورة البقرة: آية (١٩٧).

[8] سورة الاسراء: آية (٢٣).

[9] سورة التوبة: آية (٦).

ومنها: الذي والتي وفروعهما كقوله ﴿وَٱلَّذِى قَالَ لِوَٰلِدَيْهِ أُفٍّ لَّكُمَآ﴾[1]، أي كل من قال ذلك بدليل قوله بعد بصيغة الجمع ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْقَوْلُ﴾[2]، وقوله ﴿وَٱلَّذَانِ يَأْتِيَٰنِهَا مِنكُمْ فَـَٔاذُوهُمَا﴾[3]، وقوله ﴿وَٱلَّٰٓـِٔى يَئِسْنَ مِنَ ٱلْمَحِيضِ مِن نِّسَآئِكُمْ إِنِ ٱرْتَبْتُمْ فَعِدَّتُهُنَّ ثَلَٰثَةُ أَشْهُرٍ وَٱلَّٰٓـِٔى لَمْ يَحِضْنَ ۚ وَأُوْلَٰتُ ٱلْأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَن يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ ۚ﴾[4]، وأسماء الشرط كقوله تعالي ﴿فَمَنْ حَجَّ ٱلْبَيْتَ أَوِ ٱعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَا ۚ﴾[5]، للعموم في العاقل، وقوله ﴿وَمَا تَفْعَلُواْ مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ ٱللَّهُ﴾[6]، للعموم في غير العاقل، وقوله ﴿وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّواْ وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُۥ﴾[7]، للعموم في المكان، وقوله ﴿أَيًّا مَّا تَدْعُواْ فَلَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ﴾[8].

ومنها: اسم الجنس المضاف إلى معرفة كقوله ﴿فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ﴾[9] أي كل أمر الله، وقوله: ﴿يُوصِيكُمُ ٱللَّهُ فِىٓ أَوْلَٰدِكُمْ﴾[10].

---

[1] سورة الأحقاف: آية (١٧).

[2] سورة الأحقاف: آية (١٨).

[3] سورة النساء: آية (١٦).

[4] سورة الطلاق: آية (٤).

[5] سورة البقرة: آية (١٥٨).

[6] سورة البقرة: آية (١٩٧).

[7] سورة البقرة: آية (١٥٠).

[8] سورة الإسراء: آية (١١٠).

[9] سورة النور: آية (٦٣).

[10] سورة النساء: آية (١١).

المبحث الثاني: أقسام العام

والعام على ثلاثة أقسام:

الأول: الباقي على عمومه، وقد قال القاضي جلال الدين البلقيني:

"ومثاله عزيز، إذ ما من عام إلا ويتخيل فيه التخصيص، وذكر الزركشي في "البرهان" أنه كثير في القرآن، وأورد منه قوله تعالي ﴿وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٌ ١٧٦﴾[1]، وقوله ﴿وَلَا يَظۡلِمُ رَبُّكَ أَحَدٗا ٤٩﴾[2]، وقوله ﴿حُرِّمَتۡ عَلَيۡكُمۡ أُمَّهَٰتُكُمۡ﴾[3]، فإنه لا خصوص فيها.

الثاني: العام المراد به الخصوص، كقوله تعالي ﴿ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدۡ جَمَعُواْ لَكُمۡ فَٱخۡشَوۡهُمۡ﴾[4]، فالمراد بالناس الأولي نعيم ابن مسعود، والمراد بالناس الثانية أبو سفيان لا العموم في كل منهما، يدل على هذا قوله تعالى بعد ﴿إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ﴾ فوقعت الإشارة بقوله ﴿ذَٰلِكُمُ﴾. إلى واحد بعينه، ولو كان المعنى به جمعاً لقال (إنما أولئكم الشيطان) وكقوله تعالى: ﴿فَنَادَتۡهُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ وَهُوَ قَآئِمٞ يُصَلِّي فِي ٱلۡمِحۡرَابِ﴾[5]، والمنادي جبرائيل كما في قراءة ابن مسعود وقوله ﴿ثُمَّ أَفِيضُواْ مِنۡ حَيۡثُ أَفَاضَ ٱلنَّاسُ﴾[6]، والمراد بالناس إبراهيم، أو سائر العرب غير قريش.

---

[1] سورة النساء: آية (١٧٦).

[2] سورة الكهف: آية (٤٩).

[3] سورة النساء: آية (٢٣).

[4] سورة آل عمران: آية (١٧٣).

[5] سورة آل عمران: آية (٣٩).

[6] سورة البقرة: آية (١٩٩).

الثالث: العام المخصوص – وأمثلته في القرآن كثيرة جداً وستأتي، ومنه قوله تعالي ﴿ وَكُلُواْ وَٱشْرَبُواْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ ٱلْخَيْطُ ٱلْأَبْيَضُ مِنَ ٱلْخَيْطِ ٱلْأَسْوَدِ مِنَ ٱلْفَجْرِ﴾[1]، وقوله ﴿وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا﴾[2].

[1] سورة البقرة: آية (١٨٧).

[2] سورة آل عمران: آية (٩٧).

المبحث الثالث: الفرق بين العام المراد به الخصوص والعام المخصوص

الفرق بين العام المراد به الخصوص والعام المخصوص من وجوه، أهمها:

١. **أن العام المراد به الخصوص** لا يراد شموله لجميع الأفراد من أول الأمر، لا من جهة تناول اللفظ، ولا من جهة الحكم، بل هو ذو أفراد استعمل في فرد واحد منها أو أكثر.

أما العام المخصوص فأريد عمومه وشملوه لجميع الأفراد من جهة تناول اللفظ لا من جهة الحكم، فالناس في قوله (الذين قال لهم الناس) وإن كان عاماً إلا أنه لم يرد يه لفظاً وحكماً سوى فرد واحد، أما لفظ الناس في قوله ﴿وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ﴾. فهو عام أريد به ما يتناوله اللفظ من الأفراد، وإن كان حكم وجوب الحج لا يتناول إلا المستطيع منهم خاصة.

٢. **والأول** مجاز قطعاً، لنقل اللفظ عن موضوعه الأصلي واستعماله فى بعض أفراده، **بخلاف الثاني** فالأصح فيه أنه حقيقة، وعليه أكثر الشافعية، وكثير من الحنفية، وجميع الحنابلة، ونقله إمام الحرمين عن جميع الفقهاء، وقال الشيخ أبو حامد الغزالي: إنه مذهب الشافعي وأصحابه، وصححه السبكي، لأن تناول اللفظ للبعض الباقي بعد التخصيص كتناوله له بلا تخصيص، وذلك التناول حقيقي اتفاقا، فليكن هذا التناول حقيقياً ايضاً.

٣. **وقرينة الأول** عقلية غالباً ولا تفك عنه، **وقرينة الثاني** لفظية وقد تنفك.

المبحث الرابع: تعريف الخاص وبيان المخصوص

والخاص: يقابل العام، فهو الذي لا يستغرق الصالح له من غير حصر والتخصيص: هو إخراج بعض ما تناوله اللفظ العام.

والمخصص: إما متصل: وهو الذي لم يفصل فيه بين العام والمخصص له بفاصل، **وإما منفصل:** وهو بخلافه.

والمتصل خمسة: أحدهما: الاستثناء، كقوله تعالي ﴿وَٱلَّذِينَ يَرۡمُونَ ٱلۡمُحۡصَنَٰتِ ثُمَّ لَمۡ يَأۡتُواْ بِأَرۡبَعَةِ شُهَدَآءَ فَٱجۡلِدُوهُمۡ ثَمَٰنِينَ جَلۡدَةٗ وَلَا تَقۡبَلُواْ لَهُمۡ شَهَٰدَةً أَبَدٗاۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡفَٰسِقُونَ ۝٤ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ﴾[1]، وقوله ﴿إِنَّمَا جَزَٰٓؤُاْ ٱلَّذِينَ يُحَارِبُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَسۡعَوۡنَ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَسَادًا أَن يُقَتَّلُوٓاْ أَوۡ يُصَلَّبُوٓاْ أَوۡ تُقَطَّعَ أَيۡدِيهِمۡ وَأَرۡجُلُهُم مِّنۡ خِلَٰفٍ أَوۡ يُنفَوۡاْ مِنَ ٱلۡأَرۡضِۚ ذَٰلِكَ لَهُمۡ خِزۡيٞ فِي ٱلدُّنۡيَاۖ وَلَهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ۝٣٣ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ مِن قَبۡلِ أَن تَقۡدِرُواْ عَلَيۡهِمۡۖ﴾.[2]

الثاني: صفة: كقوله تعالي ﴿وَرَبَٰٓئِبُكُمُ ٱلَّٰتِي فِي حُجُورِكُم مِّن نِّسَآئِكُمُ ٱلَّٰتِي دَخَلۡتُم بِهِنَّ﴾[3]، فقوله ﴿ٱلَّٰتِي دَخَلۡتُم بِهِنَّ﴾. صفة لنسائكم، والمعني أن التربية من المرأة المدخول بها محرمة على الرجل حلال له إذا لم يدخل بها.

الثالث: الشرط: كقوله ﴿كُتِبَ عَلَيۡكُمۡ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ ٱلۡمَوۡتُ إِن تَرَكَ خَيۡرًا ٱلۡوَصِيَّةُ لِلۡوَٰلِدَيۡنِ وَٱلۡأَقۡرَبِينَ بِٱلۡمَعۡرُوفِۖ حَقًّا عَلَى ٱلۡمُتَّقِينَ ۝١٨٠﴾[4]، فقوله ﴿إِن تَرَكَ خَيۡرًا﴾. أي مالاً، شرط في الوصية،

---

[1] سورة النور: آية (٤-٥).

[2] سورة المائدة: آية (٣٣-٣٤).

[3] سورة النساء: آية (٢٣).

[4] سورة البقرة: آية (١٨٠).

وقوله ﴿وَٱلَّذِينَ يَبْتَغُونَ ٱلْكِتَٰبَ مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ فَكَاتِبُوهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا﴾[1]، أي قدرة على الأداء، أو أمانة وكسباً.

الرابع: الغاية: كقوله ﴿وَلَا تَحْلِقُواْ رُءُوسَكُمْ حَتَّىٰ يَبْلُغَ ٱلْهَدْىُ مَحِلَّهُۥ﴾[2]، وقوله ﴿وَلَا تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّىٰ يَطْهُرْنَ﴾[3].

الخامس: بدل البعض من الكل: كقوله تعالي ﴿وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا﴾[4]، فقوله ﴿مَنِ ٱسْتَطَاعَ﴾ بدل من الناس، فيكون وجوب الحج خاصاً بالمستطيع.

- **والمخصص المنفصل:** ما كان في موضع آخر من آية أو حديث أو إجماع أو قياس.

١. **فما خص بالقرآن** كقوله تعالي ﴿وَٱلْمُطَلَّقَٰتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ ثَلَٰثَةَ قُرُوٓءٍ﴾[5]، فهو عام في كل مطلقة حاملاً كانت أو غير حامل، مدخولاً بها أو غير مدخول بها، خص بقوله ﴿وَأُوْلَٰتُ ٱلْأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَن يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ﴾[6]، وبقولة ﴿إِذَا نَكَحْتُمُ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ ثُمَّ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ فَمَا لَكُمْ عَلَيْهِنَّ مِنْ عِدَّةٍ﴾[7].

---

[1] سورة النور: آية (٣٣).

[2] سورة البقرة: آية (١٦٩).

[3] سورة البقرة: آية (٢٢٢).

[4] سورة آل عمران: آية (٩٧).

[5] سورة البقرة: آية (٢٢٨).

[6] سورة الطلاق: آية (٤).

[7] سورة الأحزاب: آية (٤٩).

٢. **وما خص بالحديث** كقوله تعالي ﴿وَأَحَلَّ ٱللَّهُ ٱلْبَيْعَ وَحَرَّمَ ٱلرِّبَوٰاْ﴾[١]، خص من البيع البيوع الفاسدة التي ذكرت في الحديث، كما في البخاري عن ابن عمر (ﷺ) قال: "نهي رسول الله (ﷺ) عن عسب الفحل" وفي الصحيحين عن ابن عمر: "أن رسول الله (ﷺ) نهي عن بيع حبل الحبلة" وكان بيعاً تبتاعه الجاهلية، كان الرجل يبتاع الجزور إلى أن تنتج الناقة ثم تنتج التي في بطنها، واللفظ للبخاري، إلى غير ذلك من الأحاديث.

ورخص من الربا العرايا الثابتة بالسنة فإنها مباحة، فعن أبي هريرة (ﷺ) "أن رسول الله (ﷺ) رخص في بيع العرايا بخرصها فيما دون خمسة أوسق أو في خمسة أوسق"[٢].

٣. **وما خص بالإجماع** آية المواريث ﴿يُوصِيكُمُ ٱللَّهُ فِيٓ أَوْلَٰدِكُمْ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ ٱلْأُنثَيَيْنِ﴾[٣]، خص منها بالإجماع الرقيق لأن الرق مانع من الإرث.

٤. **وما خص بالقياس** آية الزنا ﴿ٱلزَّانِيَةُ وَٱلزَّانِى فَٱجْلِدُواْ كُلَّ وَٰحِدٍ مِّنْهُمَا مِاْئَةَ جَلْدَةٍ﴾[٤]، خص منها العبد بالقياس على الأمة التي نص على تخصيصها عموم الآية في قوله تعالى ﴿فَعَلَيْهِنَّ نِصْفُ مَا عَلَى ٱلْمُحْصَنَٰتِ مِنَ ٱلْعَذَابِ﴾[٥].

---

[١] سورة البقرة: آية (٢٧٥).

[٢] متفق عليه.

[٣] سورة النساء: آية (١١).

[٤] سورة النور: آية (٢).

[٥] سورة النساء: آية (٢٥).

المبحث الخامس: تخصيص السنة بالقرآن

وقد يخصص القرآن السنة، ويمثلون لذلك بما روي عن أبى واقد الليثى (ﷺ) قال: قال النبي (ﷺ) "ما قطع من البهيمة وهي حية فهو ميت"[1] فهذا الحديث خص بقوله تعالى: ﴿وَمِنْ أَصْوَافِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَآ أَثَٰثًا وَمَتَٰعًا إِلَىٰ حِينٍ ﴿٨٠﴾﴾[2].

[1] أخرجه أبو داود والترمذي، وحسنة واللفظ له.

[2]

المبحث السادس: صحة الاحتجاج بالعام بعد تخصيصه فيما بقي

اختلف العلماء في صحة الاحتجاج بالعام بعد تخصيصه فيما بقى، والمختار عند محققين صحة الاحتجاج به فيما وراء صور التخصيص[1]، واستدلوا على ذلك بأدلة إجماعيه وادلة عقلية.

أ. **فمن أدلة الإجماع:** أن فاطمة رضي الله عنها احتجت على أبي بكر (ﷺ) في ميراثها من أبيها بعموم قوله تعالي: ﴿يُوصِيكُمُ ٱللَّهُ فِيٓ أَوۡلَٰدِكُمۡۖ لِلذَّكَرِ مِثۡلُ حَظِّ ٱلۡأُنثَيَيۡنِۚ﴾[2]، مع أنه مخصص بالكافر والقاتل، ولم ينكر أحد من الصحابة صحة احتجاجها مع ظهوره وشهرته، فكان إجماعاً على صحة احتجاجها، ولذا عدل أبو بكر (ﷺ) في حرمانها إلى الاحتجاج بقوله (ﷺ) "نحن معاشر الأنبياء لا نورث ما تركناه صدقة"[3].

ب. ومن الأدلة العقلية: أن العام قبل التخصيص حجة في كل واحد من أقسامه إجماعا، والأصل بقاء ما كان قبل التخصيص بعده، إلا أن يوجد له معارض، وليس هناك معارض فيما وراء صور التخصيص، فيظل العام بعد التخصيص حجة فيما بقى.

---

[1] أنكر الاحتجاج به عيسي بن أيان وأبو ثور مطلقاً، وقال البلخي: أن خص بدليل متصل كالشرط والصفة والاستثناء فهو حجه، وأن خص بدليل منفصل فليس بحجه، انظر الأمدي، ج٢، ص٢١٣.

[2] سورة النساء: آية (١١).

[3] الحديث في الصحيحين وغيرهما.

الفصل السادس: المطلق والمقيد

تمهيد:

بعض الأحكام التشريعية يرد تارة مطلقاً في فرد شائع لا يتقيد بصفة أو شرط، ويرد تارة أخرى متناولا له مع أمر زائد على حقيقته الشاملة لجنسه من صفة أو شرط، وإطلاق اللفظ مرة، وتقييده أخرى من البيان العربي، وهو ما يعرف في كتاب الله المعجز "بمطلق القرآن ومقيده".

المبحث الأول: تعريف المطلق والمقيد وحكمهما

تعريف المطلق والمقيد:

المطلق: هو اللفظ الدال على مدلول شائع في جنسه.[1]

وبعبارة أخرى: هو اللفظ الدال على فرد، أو أفراد غير معينة، وبدون أي قيد لفظي[2]، مثل: رجل ورجال، وكتاب وكتب.

والمقيد: هو اللفظ الدال على مدلول شائع في جنسه مع تقييده بوصف من الأوصاف[3]. وبعبارة أخرى: هو ما كان من الالفاظ الدالة على فرد او افراد غير معينة مع اقترانه بصفة تدل على تقييده بها، مثل: رجل عراقي، ورجال عراقيين، وكتب قيمة.

هذا وإن المقيد فيما عدا ما قيد به يعبر مطلقاً، بمعنى: أن المقيد يعتبر مقيداً بالقيد الموصوف به، ولا يجوز تقييده بغيره بلا دليل، فقولنا: رجل عراقي، مقيد من جهة الجنسية

---

(1) الإحكام – الآمدي – ج٣، ص٢، وإرشاد الفحول للشوكاني، ص١٤٤.

(2) شرح مسلم الثبوت، ج١، ص٣٦٠.

(3) الأحكام – الآمدي – ج٣، ص٢، وإرشاد الفحول للشوكاني، ص١٤٤.

العراقية فقط، أما ما عدا هذا القيد فهو مطلق، فيشمل أي رجل عراقي، سواء كان غنياً أو فقيراً، حضرياً أو قروياً ... وهكذا.

حكم المطلق:

إنه يجري على إطلاقه، فلا يجوز تقييده بأي قيد، إلا إذا قام الدليل علي التقييد، وتكون دلالته على معناه قطعية، ويثبت الحكم لمدلوله، لأنه من أقسام الخاص، وهذا هو حكم الخاص.

ومن أمثلة المطلق: قوله تعالي في كفارة الظهار: ﴿وَٱلَّذِينَ يُظَٰهِرُونَ مِن نِّسَآئِهِمْ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُواْ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مِّن قَبْلِ أَن يَتَمَآسَّاۚ﴾[1]، فكلمة "**رَقَبَةٍ**" وردت فى النص مطلقة من كل قيد، فتحمل على اطلاقها، فيكون الواجب تحرير أي رقبة إذا أراد المظاهر العود إلى زوجته.

ومثله أيضاً، قوله تعالي: ﴿وَٱلَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَٰجًا يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًاۖ﴾[2]، فكلمة "**أَزْوَاجاً**" وردت مطلقه، فلا يجوز تقييدها بالدخول، فيشمل النص الزوجات المدخول بهن وغير المدخول بهن، وتكون عدة الوفاة في حقهن أربعة أشهر وعشرة أيام.

ومثال المطلق الذي قام الدليل على تقيده: قوله تعالى: ﴿مِنۢ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِى بِهَآ أَوْ دَيْنٍۗ﴾[3]، فكلمة "**وَصِيَّةٍ**" وردت في النص مطلقة، ومقتضى ذلك جواز الوصية بأي مقدار كان، ولكن قام الدليل على تقييدها بالثلث، ودليل التقييد هو الحديث المشهور عن سعد بن أبي وقاص، حيث منعه الرسول (ﷺ) من الوصية بأكثر من الثلث، والسنة المشهورة تقيد

---

[1] سورة المجادلة: آية (٣).

[2] سورة البقرة: آية (٢٣٤).

[3] سورة النساء: آية (١١).

مطلق الكتاب عند الفقهاء، الحنفية وغيرهم، أما سنة الآحاد فتقيد مطلق الكتاب عند الجمهور، ولا تقيده عند الحنفية.

حكم المقيد:

لزوم العمل بموجب القيد، فلا يصح إلغاؤه، إلا إذا قام الدليل على ذلك، ومثال ذلك قوله تعالى –في سياق تعداد المحرمات– ﴿وَرَبَٰٓئِبُكُمُ ٱلَّٰتِي فِي حُجُورِكُم مِّن نِّسَآئِكُمُ ٱلَّٰتِي دَخَلْتُم بِهِنَّ﴾.[1]

وعلى هذا فالبنت تحرم على من تزوج أمها ودخل بها، لأن حرمة البنت مقيدة بنكاح أمها والدخول بها، لا بمجرد العقد عليها، أما كلمة "**فِي حُجُورِكُمْ**" فهي ليست بقيد احترازي، وإنما هي قيد أكثري لا تأثير له في الحكم، بدليل قوله تعالى بعد ذلك: ﴿فَإِن لَّمْ تَكُونُواْ دَخَلْتُم بِهِنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ﴾[2]، ولو كان من قيد الحرمة كون البنت في حجر الزوج ورعايته وتربيته لذكر عند بيان الحل، ورفع الحرمة عند عدم تحقيق القيد وهو الدخول بالأم.

ومن أمثلته أيضاً: قوله تعالي في كفارة الظهار: ﴿فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ مِن قَبْلِ أَن يَتَمَآسَّا﴾[3]، فصيام شهرين مقيد بالتتابع، ومنه أيضاً قوله تعالي في كفارة القتل الخطأ ﴿فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ﴾[4]، فلا تجزئ إلا رقبة بوصف أنها مؤمنة.

---

[1] سورة النساء: آية (٢٣).

[2] سورة النساء: آية (٢٣).

[3] سورة المجادلة: آية (٤).

[4] سورة النساء: آية (٩٢).

المبحث الثاني: حمل المطلق على المقيد وحالاته

حمل المطلق علي المقيد:

قد يرد اللفظ مطلقاً في نص، ويرد نفس اللفظ مقيداً في نص آخر، فهل يحمل المطلق على المقيد، بمعني: أن المطلق يراد به المقيد، أو يعمل بالمطلق على إطلاقه فيما ورد فيه، ويعمل بالمقيد على تقييده فيما ورد فيه؟

للجواب لابد من بيان الحالات التي يرد فيها اللفظ مطلقاً في نص، ومقيداً في نص آخر وحكم كل حالة، وهذه الحالات هي:

أولاً: إذا كان حكم المطلق والمقيد واحد ، وكذا سبب الحكم:

فقي هذه الحال يحمل المطلق على المقيد. مثال قوله تعالي: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةُ وَٱلدَّمُ وَلَحْمُ ٱلْخِنزِيرِ﴾[1]، وقوله تعالي: ﴿قُل لَّآ أَجِدُ فِى مَآ أُوحِىَ إِلَىَّ مُحَرَّمًا عَلَىٰ طَاعِمٍ يَطْعَمُهُۥٓ إِلَّآ أَن يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَّسْفُوحًا﴾[2]، فلفظ "الدم" ورد في الآية الأولي مطلقاً، وورد في الثانية مقيداً بكونه مسفوحاً، والحكم في الآيتين واحد هو حرمة تناول الدم، وسبب الحكم واحد وهو الضرر الناشئ عن تناول الدم فيحمل المطلق على المقيد، ويكون المراد من الدم المحرم تناوله هو الدم المسفوح دون غيره: كالكبد والطحال، والدم الباقي في اللحم والعروق، فكل ذلك حلال غير محرم.

---

[1] سورة المائدة: آية (٣).

[2] سورة الأنعام: آية (١٤٥).

ثانيا: أن يختلف المطلق والمقيد في الحكم والسبب:

مثل قوله تعالي: ﴿وَٱلسَّارِقُ وَٱلسَّارِقَةُ فَٱقْطَعُوٓاْ أَيْدِيَهُمَا﴾[1]، وقوله تعالي ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا قُمْتُمْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ فَٱغْسِلُواْ وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى ٱلْمَرَافِقِ﴾[2]، فكلمة "الأيدي" في الآية الأولى وردت مطلقة، وفي الثانية مقيدة "إلى المرافق" والحكم مختلف: ففي الآية الأولي: قطع يد السارق والسارقة، وفي الثانية: وجوب غسل الأيدي، وسبب الحكم في الآية الأولي: السرقة وفي الآية الثانية إرادة الصلاة، ففي هذه الحال لا يحمل المطلق على المقيد، بل يعمل بالمطلق في موضعه، وبالمقيد في موضعه، إذ لا صلة ولا ارتباط أصلا بين موضعي النصين، وكان مقتضى الإطلاق في آية السرقة أن تقطع يد السارق كلها عملا بالإطلاق، ولكن السنة قيدت هذا الإطلاق، إذ وردت بأن النبي (ﷺ) قطع يد السارق من الرسغ، وهذه السنة مشهورة عند الحنفية فيصح بها تقييد مطلق الكتاب.

ثالثا: أن يختلف الحكم ويتحد السبب:

وفي هذه الحال يبقى المطلق على اطلاقه ويعمل به في موضعه الذي ورد فيه، مثال قوله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا قُمْتُمْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ فَٱغْسِلُواْ وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى ٱلْمَرَافِقِ﴾[3]، وقوله تعالي ﴿فَلَمْ تَجِدُواْ مَآءً فَتَيَمَّمُواْ صَعِيدًا طَيِّبًا فَٱمْسَحُواْ بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُم مِّنْهُ﴾[4].

فالحكم في النص الأول: وجوب غسل الأيدي التي وردت مقيدة، والحكم في النص الثاني: مسح الأيدي التي وردت مطلقة، والسبب للحكمين متحد، وهو إرادة الصلاة ففي هذه

---

[1] سورة المائدة: آية (٣٨).

[2] سورة المائدة: آية (٦).

[3] سورة المائدة: آية (٦).

[4] سورة المائدة: آية (٦).

الحال لا يحمل المطلق على المقيد، بل يعمل كل منهما في موضعه بموجب إطلاقه أو تقييده.

رابعا: أن يكون حكم المطلق والمقيد واحد ، ولكن سبب الحكم فيهما مختلف:

ففي هذه الحال يعمل بالمطلق علي إطلاقه فيما ورد فيه، وبالمقيد على تقييده فيما ورد فيه، فلا يحمل المطلق على المقيد، وهذا عند الحنفية والجعفرية، وعند غيرهم كالشافعية: يحمل المطلق على المقيد، ومثاله قوله تعالي في كفارة الظهار: ﴿فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مِّن قَبْلِ أَن يَتَمَآسَّا﴾[1]، وفي كفارة القتل الخطأ ﴿فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ﴾[2]، فلفظ "**رقبة**" جاء في النص الأول مطلقاً، وفي الثانية مقيدة.

وحجة أصحاب القول الثاني: هو أن الحكم ما دام متحداً مع ورود اللفظ مطلقاً في نص، ومقيداً في نص اخر، فينبغى حمل المطلق على المقيد لتساويهما في الحكم، دفعا للتعارض، وتحقيقا للانسجام بين النصوص.

وحجة الحنفية: أن اختلاف السبب قد يكون هو الداعي إلى الإطلاق والتقييد، فيكوب الإطلاق مقصودا في موضعه، والتقييد مقصودا في موضعه، ففي كفارة القتل الخطأ قيدت الرقبة بكونها مؤمنة، تغليظاً على القاتل، وفي الظهار جعلت الكفارة رقبة مطلقة، تخفيفا عن المظاهر، حرصا على بقاء النكاح، وأيضا، فإن حمل المطلق على المقيد إنما يكون لدفع التعارض بينهما عند عدم إمكان العمل بموجب كل منهما، ومع اختلاف السبب، لا يتحقق التعارض ولا يتعذر العمل بكل منهما في موضعه الذي ورد فيه، والراجح هو قول الحنفية والجعفرية.

---

[1] سورة المجادلة: آية (٣).

[2] سورة النساء: آية (٩٢).